امتياز النحال زعرب

رواية

أوجاع الروح

النشر
لمن
يستحق
4

دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

أوجاع الروح

رواية

امتياز النحال زعرب

كيان كورب للنشر والتوزيع

(دار ليلى)

الكتاب:

أوجاع الروح

المؤلف:

امتياز زعرب النحال

★★★

الغلاف:

محمد محمود

★★★

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

رقم الإيداع: 11333/2014

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

الترقيم الدولي: 978-977-5238-28-3

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042(02)(002) - 23885295(012)(002)

البريد الإلكتروني: mail@darliila.com الموقع الرسمي: www.darliila.com

امتياز زعرب النحال

أوجاع الروح

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة- اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها- بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائجها، على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

«مَنْ الذي أورث الروح أوجاعها؟»

(مريد البرغوثي)

إهداء

إنها ليست رواية.. بل لمسة وفاء لذكرى ضحايا حرب غزة الأولى

(1)

الحقيبة

- هيا، أسرعي.. احملي ما غلا ثمنه وخف وزنه! فربما كانت هذه هي فرصتنا الأخيرة للخروج من هذا الجحيم!

وقفتْ مشدوهة بعد أن ألقى في وجهها تلك الكلمات وغادر، لا تعرف ماذا تفعل، هل تأخذ مصوغاتها الذهبية، بطاقات الهوية، شهادات ميلاد الأولاد.. أم ماذا؟

أعلنت قوات الاحتلال رفع حظر التجوال لمدة ساعتين عن الحي الذي تقطن فيه هي وزوجها وأولادها.. لا ماء، لا كهرباء، ولا خطوط هاتف، والقليل من المعلبات هو كل ما تبقى بعد حصار للحي دام أسبوعًا، والآن يسمحون للأهالي بالخروج لشراء مستلزماتهم، لكن رائحة الموت المنبعثة من بين ركام المنازل المهدمة فوق رؤوس أصحابها، جعلت الأهالي يهربون خوفًا من التنكيل أو الموت إلى أحياء أكثر أمنًا، لكن هل هناك فعلًا أحياء أكثر أمنًا هنا في غزة؟!

تناولتْ حقيبة السفر المُغْبَرة من فوق خزانة الملابس، أفرغتها من ملابس الشتاء، وبدأت تفكر في «ما غلا ثمنه وخف وزنه»!!

وضعت داخل الحقيبة علبة المصوغات الذهبية ومبلغًا من المال

كانت تحتفظ به داخل كيس مزخرف برسومات فلسطينية شعبية، ثم توجهت إلى مكتب زوجها، أخرجت من الدرج الأول حقيبة صغيرة، اعتاد زوجها أن يحتفظ بكل الأوراق المهمة بداخلها تفاديًا لأي طارئ قد يحدث.. وما أكثر الطوارئ التي تحدث في فلسطين!

فتحتْ الحقيبة الصغيرة لتتأكد من وجود كل الأوراق المهمة: عقد تمليك البيت – عقد الزواج – شهادات ميلاد الزوج والأولاد – الشهادات العلمية الخاصة بها وبزوجها – صورة قديمة لجد وجدة الزوج في أثناء حفل زفاف أحد الأبناء، بالإضافة إلى بعض الفواتير والإيصالات وبعض الأوراق المختلفة المهترئة التي تثبت ملكية عائلة الزوج لقطعة أرض وبيت في قرية «المسمية» التي هاجرت منها العائلة في أثناء حرب 48، وفي جيب سري داخل الحقيبة يحتفظ الزوج بمفتاح كبير صدئ ورثه عن والده، يُقال إنه لبيتهم في القرية!

بعد أن وضعتها في الحقيبة الكبيرة، توقفت قليلًا وأخذت تفكر، ما زال هناك متسع داخل الحقيبة، ماذا تأخذ أيضًا؟!

أخذت تتمتم: «هل سيكتب لنا العودة مرة أخرى إلى المنزل؟ هل سنجده كما هو أم نراه أثرًا بعد عين؟!».

ماذا عن المكتبة وتلك الكتب التي لم تبرح مكانها طوال السبعة

أعوام الماضية؟ ماذا عن خريطة فلسطين المجسمة في غرفة الضيوف؟ ماذا عن البرواز الضخم للمسجد الأقصى الذي ابتاعه والدها ووالدتها من القدس في آخر زيارة لهما قبل اندلاع انتفاضة الأقصى، والذي أهدته لها والدتها فيما بعد؟

ماذا عن صور زفافها؟ صور صغيرتها ندى في أول يوم لها بالمدرسة؟ وصور صغيرها أحمد في أثناء مرضه ومكوثه بالمستشفى؟ صور والدها الشهيد؟ دفاتر مذكراتها؟ رسائلها المعطرة التي كانت ترسلها لزوجها في أثناء خطبتهما؟ رسائل والدها إليها؟ سجادة غرفة نومها التي جاءتها هدية من عمتها التي تعيش في تركيا؟ إصيص الورد الذي اشترته مؤخرًا...

كل شيء في المنزل له ذكرى وحكاية، كل زاوية به تحمل الكثير من الذكريات الخالدة، جلسات السمر في ردهة المنزل، مشاغبات أطفالها، أسرارها ونمنمات حكاياتها مع جارتها، سهرات المساء الرومانسية مع زوجها في الشرفة، الحديث عن المستقبل والأولاد والأمنيات العزيزة والأحلام القريبة والبعيدة.

كيف تخبئ كل هذا في حقيبة؟! لا يوجد في العالم أجمع حقيبة تتسع لكل هذا.

***

(2)
لا شيء

دخل محمود المنزل مسرعًا، ينادي على زوجته لكي تسرع، فلم يعد هناك متسع من الوقت.. إن منزل عائلتها بعيد ويخاف ألا يبلغونه قبل انتهاء المدة التي فرضها الجيش على الأهالي.

-ليلى.. ليلى.. هل انتهيتِ من توضيب الحقيبة؟!

نادى عليها مرة أخرى:

-ليلى.. ليلى.. ما بالك؟ لمَ لا تردين عليَّ؟

أمسك بكتف زوجته الصامتة، نظر إلى عينيها الغائرتين واستطرد:

- ما بكِ؟

- لا شيء!

خرجت كلمتها من بين شفتيها دون أي إحساس أو ملامح، فلا تستشف منها إذا كانت غاضبة، هادئة، حزينة، راضية، حاقدة، «لا شيء».. كلمة جوفاء خرجت من فمها فحسب!

- هل الحقيبة جاهزة؟ هل نسيتِ شيئًا؟

- لا شيء!

- إذًا دعينا نغادر المنزل سريعًا قبل انتهاء المدة.

حمل الحقيبة الكبيرة الفارغة إلا من القليل بيد، وأمسك بيده الأخرى يد زوجته، غادرا المنزل، وأقفل الباب بالمفتاح، نظر إلى المفتاح وتمنى بداخله ألا تتكرر المأساة مرة أخرى!

- انظري! لقد عرض أبو عبد الله أن يقلنا بسيارته إلى بيت عائلتكِ، هل توقعتِ هذا؟! أنا عن نفسي لم أتوقع عرضه هذا أبدًا، خاصة بعد الخلافات التي كانت بيننا، يا للسخرية، إن للحرب وجهين: وجه قبيحٌ ووجهٌ حسنٌ، إن الحرب التي تزرع الموت والدمار في كل مكان، تزرع في الوقت نفسه الرأفة والتعاطف والتكافل بين الناس، حتى بين المتخاصمين منهم، أراهنكِ أنه سوف يعود إلى مناكفاته معي بعد انتهاء الحرب!

لم يتلقَ جوابًا من زوجته فأكمل:

- انظري! انظري إلى الأولاد، إنهم يلعبون داخل السيارة دون خوف أو اكتراث من أبو عبد الله!

نظر إليها، فوجدها ساهمة لا تتكلم ولا ترد عليه، فسألها:

- ما بكِ يا ليلى؟

- لا شيء!

استقلوا السيارة التي تحركت فورًا مخلفةً وراءها عاصفة من الغبار، جلس الزوج بجانب أبو عبد الله واستغرقا في حديثٍ طويلٍ عن الحرب، بينما جلست زوجته صامتة في الخلف مع أطفالهما، لم يقطع صمتها إلا صرخة ابنتها ندى:

- انظري يا أمي، انظري إلى دكان أبو خليل، لقد اختفى، لم يعد له وجود، لم يتبقَ منه شيء.

- لا شيء!

نظر الزوج إلى زوجته نظرة خاطفة بها الكثير من القلق عليها والخوف من قلة حديثها وتجهمها المستمر، وبخاصة أنه لا يوجد كلام على لسانها سوى تلك الكلمة اليتيمة «لا شيء»، ثم عاد ينظر إلى ما تبقى من دكان أبو خليل.

- لم يتبقَ شيء من دكان أبو خليل ولا من أبو خليل نفسه! قال أبو عبد الله بهدوء.

- ماذا؟ ماذا تقول؟ هل مات أبو خليل؟!

- وقعت قذيفة دبابة على دكانه، فتناثرت أشلاؤه هو وزوجه أم خليل وطفلتهما الصغيرة، لم يلتزما بمنع التجول، أرادا مساعدة الناس، فالكثير من زبائنهما كانوا بحاجة لبعض الأشياء الضرورية من حليب

الأطفال والمعلبات والحبوب.

- يا إلهي، رحمة الله عليك يا أبو خليل، كان رجلًا طيبًا وصبورًا، كنت أشتري منه ما نحتاجه في البيت بالدَّيْن، لم أره ولا مرة متذمرًا أو شاكيًا، كان دائم الابتسام في وجه زبائنه، وزوجته أيضًا كانت سيدة فاضلة، معاملتها طيبة، وابتسامتها الرقيقة لا تفارق محياها هي الأخرى، رحمة الله عليهم جميعًا.

أخذ ينظر محمود من نافذة السيارة، وتذكر أنه لم يسدد دين أبو خليل لهذا الشهر، وعزم بداخله على سداده لابنه خليل، لو كتب الله له السلامة والنجاة من هذه الحرب.

قطع صوت أبو عبد الله شرود محمود:

- هل سمعت عن عائلة فتحي الحاوي؟ لقد سقط صاروخ «إف 16» على منزله ذي الثلاثة طوابق، فاستشهد هو وعائلته المكونة من أحد عشر شخصًا، وما زالوا مدفونين تحت أنقاض المنزل؛ حيث رفضت قوات الاحتلال طلبًا من الصليب الأحمر بإخراج الجثث والبحث عن أحياء تحت الأنقاض، لا أعتقد بأن هناك أحياء بعد انقضاء أسبوع على دفنهم هناك، ليرحم الله الجميع.

- يا إلهي، إن ابنته الصغيرة صديقة ابنتي ندى، وتدرس معها في

نفس الصف، إنها صديقتها المفضلة!

التفت وراءه وحمد الله أن ندى لم تكن تسمعهما وهما يتحدثان، بل كانت مشغولة هي وأحمد بمتابعة مشاهد الدمار حولهما، خطف نظرة سريعة إلى زوجته التي ما زالت على حالها.

أدار أبو عبد الله مفتاح تشغيل الراديوَ فجاء صوت محمد عساف هادرًا:

«شدي حيلك يا بلدنا.. شدي حيلك يا بلد

شدي حيلك يا بلد.. من شيخك حتى الولد».

وتبعه صوت جمال النجار:

«ارمي علي من السما.. ما يهمني نارك

ما يهمني لأجل القدس.. جيشك وجزارك

عم تشهدوا يا ناس.. صدري أنا متراس

حالف لعيش بعزتي.. رافع أبد هـ الرأس».

توالت الأناشيد الحماسية والأغاني الوطنية، يبدو أنه لا جديد في الأمر، تذكر محمود أنه لم يستمع لنشرة أخبار منذ أكثر من أسبوع، وهو عمر الحرب الوليدة على غزة حتى الآن، فلقد تم قصف محطة توليد

الكهرباء في أول يوم من بدء العملية العسكرية على غزة.

- هل هناك أخبار جديدة يا أبو عبد الله؟ تساءل محمود.

- يقولون إن هناك حديثًا عن مساعي ومجهودات عربية ودولية لوقف إطلاق النار، لكنه غير مؤكد، أعتقد أن إسرائيل لن تنسحب إلا بعد أن تدمر قطاع غزة فوق رؤوس أصحابه، إنها تعاقب الشعب الفلسطيني على الديمقراطية التي مارسها بالانتخابات، خصوصًا أن نتائج تلك الانتخابات لم تأتِ على هواها.

لم يرغب محمود في الخوض في أسباب الحرب، فإسرائيل لا تحتاج لمبررات لشن حرب جوية أو برية على الأراضي الفلسطينية، فهي تدخل وتخرج وقتما تشاء، تخلف وراءها الدمار والهلاك، ضاربة عرض الحائط بكل المواثيق الدولية التي تدعو لحماية المدنيين في النزاعات المسلحة.

كان كل تفكيره ينصب في طريقة لخروجه هو وعائلته الصغيرة من الحرب بأقل الخسائر الممكنة، لم تعد تعنيه السياسة كثيرًا، فحياته الأكاديمية تكفيه حاليًا، كما أن آراءه السياسية لن تعجب أبو عبد الله وهو في غنى عن مناقشته الآن.

كان يؤمن بداخله أن لكل فلسطيني دوره المنوط به، فهو كأكاديمي

ينحصر دوره في تعليم الناشئين وبناء الجسد التعليمي الجيد للأجيال القادمة، بينما هناك آخرون يمتد دورهم إلى حمل السلاح والدفاع عن البلد والتصدي لهجمات العدو الصهيوني، كان هناك اتفاق غير مبرم بين الجميع يعرف من خلاله كل شخص دوره الموكل إليه.

أفاق محمود من شروده عندما اقترب من منزل عائلة زوجته، أشار إلى أبو عبد الله بأن يسلك ذلك الطريق الترابي، كان البيت المكون من طابق واحد يقبع في أول الطريق وكانت شجرتا زيتون كبيرتان تزينان مدخل المنزل.

نزل محمود من السيارة وساعد زوجته في النزول بينما هرع الطفلان إلى المنزل، حمل الحقيبة ودعا أبو عبد الله للدخول، لكن أبو عبد الله شكره واستأذن بالانصراف فهو يرغب بالعودة إلى المنزل قبل إعادة منع التجول، وقد تمنى كلٌ منهما للآخر السلامة.

****

(3)
في بيت العائلة

بمجرد رؤيتها والدتها، انفجرت ليلى بالبكاء والنحيب وكأنها لم تبكِ من قبل، أخبرت والدتها بما حدث في الحي، أخبرتها بكل شيء، كيف تساقطت شظايا الزجاج على رأس صغيرتها وهي نائمة في غرفتها، لم تشأ أن توقظها للذهاب إلى المدرسة، فقد كانت مريضة في الليلة الماضية، لم تكن تعلم بأن الحرب سوف تعلن عن نفسها بهذه الطريقة الوحشية وتكشف عن وجهها القبيح في ساعات الصباح الباكر.

استغرقت عملية تنظيف شعر ندى من القطع الصغيرة وندف الزجاج ساعات طويلة، كانت خائفة على صغيرتها، وخائفة في الوقت ذاته من أن تؤذي نفسها.

ظل أحمد واقفًا أمام الباب لا يريد أن يدخل الغرفة مرة أخرى، وقد بال على نفسه من الخوف، كان من حسن حظه أن سريره يقع بعيدًا عن النافذة ولذلك لم تنل منه شظايا الزجاج.

عاد محمود من عمله سريعًا بعد الضربة الجوية الأولى، كان مُتفاجِئًا بالحرب رغم تهديدات العدو وإعلانه أكثر من مرة عن قرب شن حملة عسكرية واسعة ضد غزة.

حكت ليلى كل شيء لوالدتها، كلمات مفهومة وأخرى غير مفهومة مختنقة بالدموع والتنهيدات.

سألت عن خالد بلهفة، فأخبرتها الأم بأنه بخير إلا أنه لم يعد ينام بالليل بشكل كافٍ، أما الآن فتعتقد أنه نائم بعد أن قضى الليلة الفائتة ساهرًا ينتظر وصول مياه البلدية حتى يُعبئ خزان الماء.

احتضنتها أمها وطلبت منها أن تهدأ قليلًا وأن تتوقف عن الكلام، فأمامهما وقتٌ طويل للحديث.

اقترحت ليلى أن يبقى الجميع معًا في حجرة واحدة، إلا أن الأم رفضت ذلك وطلبت منهم أن يناموا في حجراتهم ولم تخبرهم السبب، كانت في قرار ذاتها خائفة إن سقطت قذيفة على البيت أن يلقوا مصارعهم جميعًا، أرادت أن يبقى أحدهم، على الأقل، ليحكي ما حدث!

بدأت ليلى في تنظيف حجرتها القديمة، وضعت حقيبتها الفارغة إلا من القليل بالقرب من الباب، ورتبت البطانية الجديدة على سريرها، ووضعت على الأرض فرشتين إسفنجيتين لأحمد وندى وحرصت على أن يكونا بعيدتين عن النافذة الزجاجية قدر المستطاع.

خرجت إلى الصالة فوجدت أحمد وقد غفا في حضن جدته، أشارت إلى محمود فحمله إلى الداخل ثم عاد لمشاهدة الأخبار قبل أن ينقطع التيار

الكهربائي.

أما ليلى فقد توجهت إلى المطبخ لمساعدة والدتها في إعـداد الطعـام، كانت تحاول أن تشغل نفسها عن التفكير في الحرب والأيام الـصعبة الـتي مرت بها في منزلها.

***

(4)
أم سيئة

في المطبخ، كانت الأم قد وضعت «الحلة» على النار، وبدأت في غسل الأطباق وتنظيف الأدوات التي استخدمتها في إعداد الطعام، نظرت إلى ابنتها وشعرت بحاجة الأخيرة إلى الكلام والفضفضة، فقالت وهي ترسم ابتسامة حانية على شفتيها:

- هيا تكلمي!

- أشعر بأني أم سيئة.

- لمَ تقولين هذا؟

- عندما رأيت أحمد يغفو في حضنك، تذكرت أني لم أحتضنه منذ فترة طويلة، هل تعلمين أني أتذمر وأشعر بالحنق عندما أضطر للسهر من أجل الاعتناء بندى عندما تمرض، لم أُعد الحلوى لهما منذ زمن، لم أصنع لهما الكعك بالعجوة الذي يحبانه كثيرًا ولا «المهلبية» بالبرتقال، أكتفي فقط بشراء الشيكولاتة لهما، أتحجج بالتعب وضيق الوقت! أشعر بالملل والضجر عند ترتيب حاجياتهما أو إعادة توضيب غرفتهما أو حتى جمع ألعابهما المبعثرة في كل مكان، أشعر بالجفاء واللامبالاة تجاههما، يقتلني إحساسي بأن ما أفعله لأجلهما هو فقط من باب الواجب لا أكثر، إن

ضميري يؤنبني من أجل ذلك، أحاول أن لا أشعرهما بهذا، أعتقد أنهما يحبان والدهما أكثر مني، محمود حنون، يستمع لأحاديثهما ويشاركهما في اللعب، أشعر بأني لا أستحقهما.. هل تعلمين؟ لم أخبر أحدًا بهذا من قبل حتى محمود نفسه لم أخبره، هل تعتقدين أني أم سيئة؟!

- لا.. لستِ كذلك, لا يوجد أم سيئة وأُم جيدة, فالأم أم، كل ما في الأمر أنكِ أم تمر بظروف صعبة.. لِنَقُل استثنائية.

- أوَتعلمين؟ عندما كنت حبلى بندى, كنت أتحرق شوقًا لرؤيتها, أحسب الدقائق والساعات في انتظار موعد الولادة, لم أكن خائفة من آلام الوضع، فالألم يهون عندما أوقن بأني سأعود إلى البيت وطفلتي في حضني، كنتُ أخفف عن نفسي بهذا التفكير. أذكر أني، ذات مرة، كدتُ أصرخ فرحًا: «أنا عندي طفلة، وهذه ملابسها يزدان بها حبلُ غسيلي!»، لا أعرف ما الذي أصابني! لم أكن يومًا قاسية القلب، لا أعرف من أين لي بكل هذه القسوة!

- دعكِ من هذا التفكير، فأنتِ ما زلتِ شابة في مقتبل العمر وأمامك الكثير لتقدميه لهما، لا تلتفتي لتلك الأفكار السوداوية، فما هي إلا غيمة سوداء تمر بسماء قلبك الدافئ الطيب.

هنا جاء صوت محمود، من الصالون، مازحًا:

- هل علينا أن ننتظر حتى تنتهي الحرب أولًا لنتمكن من تناول طعام الغداء؟!

ضحكت الأم.. وابتسمت ليلى قائلة:

- لا.. لن تضطر إلى ذلك يا زوجي العزيز!

- اذهبي يا ليلى وأخبري أخاكِ بأن الغداء جاهز، أما أنا فسوف أقوم بتجهيز مائدة الطعام، وإن لم نفعل، فقد يعلن زوجكِ علينا الحرب العالمية الثالثة!

- ألا تكفينا هذه الحرب المُستعرة، لتقوم أخرى؟!

تساءلت ليلى بحزن ثم غادرت المطبخ.

***

(5)

بين الكتب

دلفت ليلى إلى حجرته، فوجدته – كالعادة – جالسًا فوق سريره يطالع كتابًا.. شبكت يديها وأسندت كتفها على حافة الباب وسألته:

– أما زلت مولعًا بأدب السجون؟

– أهلا ليلى.. تفضلي.. متى أتيتم؟

– قبل قليل..

– لم أشعر بكم، كيف هي الأوضاع في حيّكم؟

– لا تختلف كثيرًا عن أوضاعكم، لكن الموت مع الجماعة رحمة، أليس كذلك؟

ابتسم خالد ابتسامة خجولة، ثم تغيرت ملامحه وكأنه ندم على تلك الابتسامة في هذا الوقت العصيب.

بادرته بالكلام عندما جلست بجانبه على حافة السرير:

– لم تجب عن سؤالي.. أما زلت مولعًا بأدب السجون؟

– نعم..

– إلى متى؟

- إلى متى؟! حتى أتمكن من كتابة قصتي الخاصة.

- ألن تنسى تلك التجربة المريرة يا أخي؟

- كيف أنسى تسع سنوات من عمري في سجون الاحتلال أنتقل ما بين معتقل وآخر؟! تلك السنوات لا تفارق خيالي، وكأنها حدثت بالأمس.

- لقد مر وقتٌ طويل على تلك الأحداث المؤلمة!

- ما أسهل أن نتذكر الأحداث المؤلمة في حياتنا وكأنها تقف على طرف الذاكرة، إذا استدعيناها، أتتنا راكضة.. أخبريني هل تسقط الذكريات الأليمة بالتقادم؟

تململت ليلى في جلستها وقالت:

- لا.. لكنها تصبح أخف وطأة عن ذي قبل!

- لا أعتقد ذلك.. أشعر بأنها أشد وطأة.. ربما يختلف الوضع إذا تمكنتُ من إخراجها على الورق، لكنه الخوف!

- الخوف ممَ؟

- الخوف من أن لا تخرج تلك الأوراق إلى النور.

- أصعب ما في الكتابة، يا خالد، أن تجبر أوراقك على الاختباء

وراء جدران الخوف.

- تائه أنا يا ليلى، وقدمي ضلت الطريق، لا أريد شيئًا، فقط أريد أن أسلك طريقًا لا يوصلني إلا لنفسي..

ساد الصمت بينهما لبرهة، اكتست ملامحهما بالجدية، وعلت تلك الغيمة السوداء رأسيهما.

حاولت ليلى تغيير الأجواء لتخفف عن أخيها غير الشقيق معاناته، لقد مر خالد بأحداث صعبة وموجعة في حياته، بداية من طفولته الحزينة بعد انفصال والدهما عن والدته، واضطراره للتنقل الدائم فيما بينهما، ثم اعتقاله في الانتفاضة الأولى قبل أن يبلغ السادسة عشرة من عمره بتهمة توزيع المنشورات وإلقاء الحجارة على جنود الاحتلال، وتعرضه في أقبية التحقيق لأبشع صور التعذيب الجسدي والنفسي، ثم إعادة اعتقاله مرة أخرى في بداية انتفاضة الأقصى للاشتباه بانضمامه للمقاومة الشعبية، حيث قضت المحكمة بسجنه خمسة أعوام، وقد أعقب ذلك رحيل والدته غمًا وكمدًا على فراق وحيدها، ثم عدم تمكنه من إلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليها، ليلحق بها الأب شهيدًا، فيما بعد، دون أن يودعه هو الآخر، لم يتمكن خالد من تخطي كل تلك الخيبات والانكسارات المتتالية.

بعد خروجه من المعتقل، لم يعد كما كان، كان هناك حاجز بينه وبين كل شيء.

لم يجد ملجأ له سوى بيت والده الشهيد وفي حضن والدته الثانية، اعتزل الناس وآثر العيش في صومعته بين آلاف الكتب المكدسة حوله.

صوتُ انفجار بعيد انتشل ليلى من شرودها، فقالت لأخيها:

– يبدو أنهم عادوا للقصف من جديد!

لم تتلقَ جوابًا، نظرت إلى الكتاب الذي بين يدي أخيها وقالت:

– ما اسم الكتاب الذي تقرأه؟

– «تلك العتمة الباهرة».

– لصنع الله إبراهيم؟

– لا.. إنه للطاهر بن جلون، كاتب مغربي، أما المصري صنع الله إبراهيم فلقد كتب «تلك الرائحة».

– وما الفارق؟ تساءلت ليلى دون اكتراث.

– لا يوجد فارق، فكلنا في الهم شرق! في «تلك الرائحة» يتحدث صنع الله عن تجربته في المعتقل كسجين سياسي، وفي «تلك العتمة الباهرة»

ينقل لنا الطاهر قصة أحد سجناء معتقل تزمامارت الشهير.

– أذكر أنني قرأت كتاب صنع الله إبراهيم منذ فترة بعيدة، أعتقد بأنه موجود في مكتبة أبي رحمة الله عليه، أليس كذلك؟

أومأ خالد برأسه وقال:

– مكتبة والدي تعج بالكتب الكثيرة، حاولت ترتيبها وتصنيف الكتب فيها لكني عجزت عن ذلك، فتركتها كما هي، أعتقد بأن والدي كان يحبها كما هي، من دون ترتيب أو تنظيم.

ابتسمت ليلى عندما تذكرت والدها صاحب الروح الطفلة، المشاكسة والفوضوية.

نظر خالد إلى سقف الحجرة لبرهة ثم أردف قائلا:

– *قالت: أخاف عليك السجنَ، قلت لها:*

من أجل شعبي ظلامُ السجن يُلتحفُ

لو يقصرون الذي في السجن من غرفٍ

على اللصوص لهدّت نفسها الغرفُ

لكن لها أملٌ أن يُستضاف بها

حُرٌ فيعبق في أنحائها الشرفُ

- كلماتٌ مؤثرة، أهي كلماتك؟

- لا، قد أكون قارئًا نهمًا، لكني بالتأكيد كاتبٌ فاشل، إنها للشاعر الفلسطيني راشد حسين.

- قل لي يا خالد، كم كتابًا قرأت من أدب السجون؟

- لم أعدها من قبل، لكن أعتقد بأن العدد قد تجاوز المائة كتاب.

- يا إلهي، كم أنت مثيرٌ للشفقة يا خالد؟! «ابتسمت ليلى».

- لا.. لستُ كذلك، فأنا أفضل حالاً منكِ!

- ماذا تقول؟ كيف ذلك؟ «فوجئت ليلى بكلامه».

- على الأقل أنا لدي هواية تخرجني من هذا العالم الضيق إلى عالم آخر رحب خالٍ من التعقيدات والخيبات.. أما أنتِ فلا.

صمتت ليلى برهة وهي تدرك أن أخاها صادقٌ فيما يقول، لقد مضى وقتٌ طويلٌ على آخر مرة أمسكت فيها كتابًا بعد أن قرأت أكثر من نصف الكتب التي في مكتبة والدها الذي كان دائمًا يشجعها على القراءة ويصفها قائلا: «أنت دودة قراءة يا ليلى»، ثم تذكرت كيف امتنعت عن القراءة منذ رحيله، شعرت بغصة في حلقها لكنها قالت:

- في هذه عندك حق، لقد هجرت عالم الكتب، ذلك العالم الذي

كان يجمعنا نحن الثلاثة، ولم يقتصر ذلك على الكتب فقط، لقد توقفت أيضًا عن المشاركة في الأعمال الخيرية، لقد مللت كل شيء، لم يعد هناك عمل يستهويني، مُشبعة أنا بالخيبات يا خالد!

قررت أن تغير الموضوع، فاستطردت:

– دعك مني الآن، تقول أمي إنك مُقِلٌ في نومك، لماذا؟

– إنها فلسطين يا ليلى، فلسطين كلما أغفو توقظني وتقض مضجعي.

– فلتعد إليها، إنها بحاجة إليك، بحاجة لكل أبنائها.

– أخبرتكِ من قبل بأني مقاوم متقاعد، لقد خرجت على المعاش منذ زمنٍ بعيد، لم تعد عندي رغبة في مواصلة القتال، أصيبت يدي بالشلل وبندقيتي بالعطب، كل ما في الأمر أني دائم التفكير في فلسطين كمشكلة عويصة لا حل لها.

– لا تفقد أملك في الحياة، فما زال ينتظرك الكثير لتفعله من أجلها.

– أنا لا أملك إلا أملًا مريضًا سقيمًا.

توجهت ليلى نحو نافذة حجرته ثم أردفت قائلة:

- لا تقل ذلك، انظر حولك، ما زالت هناك حياة رغم كل شيء، سوف تضع الحرب أوزارها عاجلًا أم أجلًا وتعود الحياة كما كانت، لقد اعتدنا على ذلك، تعال وانظر من خلال نافذتك، افتحها ودعها مشرعة، ما زال بالخارج حياة، انظر إلى الأمطار وأوراق الأشجار الخضراء، إنها صورة رائعة من إبداع الخالق سبحانه وتعالى، إنها صورة جميلة عن الأمل.

- تنهزم الصور الجميلة عندما تصطدم بالواقع المرير يا ليلى.

ادّعت أنها لم تسمعه، فأردفت قائلة:

- قف ولو لمرة واحدة أمام النافذة، دع تلك النسائم الباردة المنعشة تدخل صدرك وتطفئ لهيب الوجع الذي يكتنف قلبك.

- تلك النسائم هي نسائم أمي.. كلما هبت في المكان، أتذكر أني لم أودعها ذاك الوداع الذي يليق بها.

- يكفي يا خالد!

- ما أصعب الرحيل.. وما أقساه على قلوبنا الضعيفة.

- أتعبتني!

خرجت تنهيدة طويلة من بين شفتي ليلى، عادت وجلست

بجانبه على السرير، ولاذت بالصمت، فالصمت هنا أبلغ من كلام لن يجد له آذانًا مصغية.

كانت تحاول الخروج من كآبة الحرب بالحديث مع أخيها.. فوجدت نفسها قد دخلت في مأزق الذكريات الحزينة والأفكار القاتمة والقلب المعتم.

- خالـ..

قاطعها قبل أن تكمل جملتها..

- لا تحاولي ذلك مع من أتعبه ماضيه وخنقه حاضره وأرّقه مستقبله.

استسلمت ليلى وقالت:

- حسنًا.. أعلنتُ هزيمتي في محاولتي تلك!

هنا نادت الأم على ليلى وخالد:

- هيا.. نحن بانتظاركما.. فالغداء جاهز.

***

(6)

مُشاهدة

بعد أن تناولت العائلة طعام الغداء، جلس الجميع يتابعون نشرات الأخبار، ينتقلون من قناة لأخرى، يعدون الشهداء ويتابعون مشاهد الدمار التي تعرضها تلك الشاشات الصماء، فهم هناك - خلف تلك الشاشات - لا يشعرون بمدى فداحة الأحداث التي تقع على الأرض، تنهي تلك المذيعة نشرة الأخبار بابتسامة عريضة وتتمنى للمشاهدين يومًا طيبًا!

رغم ما يحدث هنا من أهوال ومجازر فإن الحياة تسير، خارج غزة، بشكل طبيعي يبعث على الجنون.

قدمت الأم الشاي للجميع، بينما حاول خالد التسلل هاربًا إلى صومعته، استوقفته ليلى وهمست بأذنه:

- ابقَ معي.. أحتاج إليك!

تدرك ليلى أنها لا تحتاج لخالد ليشعرها بالأمان لكن، على الأقل، كانت محاولة منها لإبقائه معهم أطول مدة ممكنة، إنها تعرف أن أجواء الحرب المستعرة قد تزيد من حدة اكتئاب أخيها، محاولات ليلى تلك تنجح أحيانا وتفشل في أحيان أخرى.

جلس خالد معهم، جسديًا كان موجودا في تلك الحجرة الصغيرة التي اختارتها الوالدة لتكون ملجأ للجميع في أثناء الحرب، فهي حجرة داخلية لا يوجد بها نوافذ كانت تستخدمها فيما مضى كمخزن للأغراض التي لا تستعملها، وضعت جهاز التلفاز على منضدة صغيرة في إحدى الزوايا كما وضعت بعض المقاعد الخشبية بجانبه بالإضافة إلى مدفأة وموقد صغير لصنع الشاي والقهوة.

كان خالد جسدًا بلا روح، نظراته غائرة ورأسه للأسفل وكأنه يحسب عدد تلك الزهور في السجادة البنية تحت أقدامهم، كان يتمنى في قرار ذاته لو تحرك محمود قليلًا ليعرف كم زهرة تختبئ تحت قدميه! لم يعتد خالد على الجلوس مع الآخرين خارج حجرته، شعر بالاشتياق لكتابه الذي تركه مفتوحًا على سريره، يريد معرفة القصة الجديدة التي سوف يرويها البطل اليوم لأصدقائه في المعتقل.

- ما رأيك أنت يا خالد؟

انتشل سؤال محمود خالد من شروده، قلّب نظره في الجميع ثم قال:

- عفوًا.. رأيي في ماذا؟

- يبدو أنك لم تكن معنا.

- أنا آسف، أشعر بالتعب.

غادر خالد الحجرة مسرعًا دون أن يلتفت خلفه، وعُدنا - نحن - لمتابعة الأخبار العاجلة.

كانت القنوات الإخبارية تبث الصور الأولية من قصف مدرسة الفاخورة بالفسفور الأبيض المحرم دوليًا، تلك المدرسة التي لجأت إليها بعض العائلات الفلسطينية التي تعرضت بيوتها للقصف، والتي كانت تنشد الأمان في تلك المدارس، ظنًا منها أن الطائرات الإسرائيلية الحربية لن تقصفها لأنها تابعة لـ«الأنروا»، كانت الإحصاءات المبدئية تشير إلى أكثر من أربعين شهيدًا.

أنظر إلى أشلاء الأطفال في التلفاز وأعيد مشاهدتها مرة أخرى على المواقع الإخبارية على شبكة الإنترنت، يرتجف قلبي وأتساءل كيف لأم ذلك الطفل أن تتحمل رؤية صغيرها على هذه الشاكلة، وقد تحول إلى قطع صغيرة، تستقر قدمه عند رأسه وتنسكب أمعاؤه من بطنه، هل تبقى تلك المرأة من العقلاء، لا أستطيع أن أتصور نفسي مكانها، لن أحتفظ بعقلي لثانية واحدة، سوف أفقد صوابي وربما صُرِعَتْ نفسي بجانبه، ولكني أعود وأقول إن الله يصب جام رحمته في قلوب المفجوعين والثكالى، ويثلج صدورًا اشتعلت نيرانًا، ويداويهم بالنسيان.. لكن غصة فقدانهم أحباءهم

لا يداويها شيء، سوف تصاحبهم ما بقوا على قيد الحياة، في مناسباتهم الحزينة سوف تحضر ذكراهم، وفي أوقات فرحهم سوف يحضر طيفهم، سوف يبقى حزنهم ووجعهم قائمًا للأبد. فالفقدان لا ينتهي ولا يسقط بالتقادم، فجذوته تبقى مشتعلة ما داموا أحياء، تسكن الأوجاع أرواحهم وتستقر، وتبقى الدعوات بالرحمة، وتمني الاجتماع، على خيرٍ، بمن فقدوهم في الجنة هي السلوى بالنسبة إليهم.

أشعر دائمًا بأن الموت يستوطن ديارنا، هو قريبٌ جدًّا مني، لكني أشعر في قرار نفسي بأنه لن يقترب أكثر، أنه يحتفظ بمسافة بيني وبينه، لستُ المستهدفة هذه المرة، لا أنا ولا عائلتي، هكذا أشعر، أو ربما هكذا أتوهم!

***

(7)

البداية

تجتاحني أمواج الرتابة والاكتئاب، أشعر بالملل، بالاختناق، لا شيء جديدًا، القصف مستمر بلا توقف منذ ليلة الأمس، لا كهرباء، لا حديث، لا تواصل، لا عمل، لا رفقة، لا شيء..

استيقظتُ باكرًا رغم أني لم أنم جيدًا، استغرقت وقتًا طويلًا في محاولات شبه فاشلة لكي أنام، لكن الأرق تمكن مني وهزمني، ليت تلك الأصوات تتوقف ولو قليلًا، أريد هدوءًا ولو لدقائق معدودة، أريد أن أسترد نفسي أو على الأقل أن أسيطر على ما تبقى منها.

في المطبخ، وقفتُ أعد لنفسي فنجانًا من القهوة، أنظر من النافذة التي تجمعت حول أطرافها قطرات من الندى، ونسمات باردة تتسلل عبرها، ربما جذبها عبق القهوة العربية.

لو كانت الظروف مختلفة، لكان منظر أصص النعناع والريحان والزعتر البلدي على الإفريز الخارجي للنافذة شيئًا مبهجًا للنفس، لكن الحرب تنزع من الأشياء رونقها وجمالها.

-أم خالد.. أم خالد! «اعتاد الناس على مخاطبة أمي بهذه الكنية».

- من هناك؟

- صباح الخير، ليلى!

- صباح النور، أم سائد.

- عندما شممت رائحة القهوة، اعتقدت بأنك أم خالد، متى جئتم؟

- جئنا بالأمس..

- وكيف هو الحال في حيكم؟

- سيئ يا أم سائد.. الحال سيئ في كل مكان.

- أي نعم، صدقتِ، لقد عاصرت عدة حروب من قبل، لكنها ليست بهذه القوة، لقد طغوا وتجبروا هؤلاء اليهود.

ساد الصمت برهة، فأردفت أم سائد قائلة:

- أين أمك؟ هل ما زالت نائمة؟

- نعم، لم تستيقظ بعد، الجميع نيام ما عداي، لقد كانت ليلتي صعبة!

- ليلتنا كلنا كانت صعبة، أنا أيضًا لم أنم جيدًا، أنتظر أن يعود سائد ولكنه لم يعد حتى الآن.

- وأين يذهب سائد؟ هل يجرؤ أحد على الخروج في هذا الوضع؟

- سائد مُرابط على الحدود منذ بداية الحرب يا ليلى، وعدني أن يعود للبيت بين الحين والآخر ليلقي بالتحية، لكنه لم يعد حتى الآن، إنه بخير، هكذا يحدثني قلبي.

يا إلهي، كن بعون تلك المرأة المسكينة، فهو وحيدها، لا تجعل الحسرة تسكن قلبها من جديد، لقد عانت كثيرًا في حياتها، تركها زوجها وتزوج أخرى وحرمها من رؤية ابنها لأكثر من تسعة عشرة عامًا، وعندما مات الزوج عاد الابن لحضن والدته، فلا تحرمه ولا تحرمها من ذلك الحضن مجددًا!

اعتادت أمي وجارتنا أم سائد على تبادل الحديث في أثناء وجودهما في المطبخ، فنافذة مطبخنا تطل على نافذة مطبخها، وكل يوم تلقي أم سائد تحية الصباح على أمي وتتجاذب معها أطراف الحديث حول آخر أخبار البلد، وهكذا تمضي فترة الصباح، وإذا احتاجت أمي لشيء نادت على أم سائد من النافذة وناولتها إياه.

- ما رأيكِ أن تشاركيني احتساء القهوة يا أم سائد؟

- أود ذلك لكني أخاف الخروج من البيت في هذا الوضع، شكرًا لكِ.

ساد الصمت لبرهة بينما تسللت تلك الأنشودة الحماسية من راديو أم سائد لتصل إلى أذن ليلى.

«مولوتوفي.. رشاشي.. وسلاحي الله أكبر»

عادت أم سائد وسألت ليلى بصوتٍ مرتبك:

- هل سمعتِ آخر الأخبار؟

- لا، ماذا هناك؟

- سمعت قبل قليل عبر الراديو أن الدبابات تحاصر الحي من الجهة الجنوبية، وقوات الاحتلال احتلت بناية أبو الفهد، واعتلت سطحها بعد أن قامت باحتجاز العائلة كلها داخل غرفة في الطابق الأرضي، وهناك قناصة فوق السطح، لا أحد يخرج أو يدخل من تلك الناحية.

- يا إلهي، هذا خبر مفزع يا أم سائد، إذا كانوا قد وصلوا للناحية الجنوبية، فهم لا يبعدون كثيرًا عن منطقتنا.

- نعم يا ابنتي، ليلطف الله بنا.

- حسنًا، اسمحي لي بالذهاب يا أم سائد، سوف أوقظ الجميع وأخبرهم بذلك.

غادرت ليلى المطبخ، نسيت القهوة على المائدة بالداخل، بدأت تفكر، ارتجفت أوصالها، لقد غادرت الحي الذي تقطن فيه خوفًا من الاجتياح، لتجد نفسها وجهًا لوجه مع الاجتياح هنا، في هذا الحي الهادئ البعيد عن المناطق الحدودية أو حتى الساخنة بالأحداث، لطالما كان الحي الذي تقطن به عائلتها ملاذًا للباحثين عن الهدوء والبعد عن المناطق التي تشتعل بالمواجهات مع قوات الاحتلال.

نظرت داخل الغرفة التي ينام بها زوجها وطفلاها، نظرت في وجهي الصغيرين، وعادت ترتجف من جديد، يا إلهي، ما سر هذه الرجفة، هل هو البرد أم الخوف؟ هل أوقظهم أم أتركهم نيامًا؟ أين تركت القهوة؟ يا إلهي، لم أعد أحتمل، أريد أن أبكي لكنني لا أستطيع! ماذا أفعل؟ لا أريد أن أبقى وحدي، سوف أوقظهم جميعًا.

ترددت في إيقاظهم، وقررت أن تتركهم نيامًا، فلا أحد يعلم ماذا تحمل لهم الساعات القادمة.

فتحت باب البيت وخرجت لتستنشق بعض الهواء فرأت بعض الأوراق التي تسقط من السماء، التقطت إحداها، كان لونها أحمر وقد كُتِبَ عليها باللغة العربية تحذير من قوات الجيش الإسرائيلي للمواطنين الفلسطينيين، تطلب منهم عدم إيواء «المخربين» والابتعاد عن الأماكن

المستهدفة، وفي نهاية التحذير يتمنى جيش الدفاع الإسرائيلي السلامة للجميع.

أعادت ليلى قراءة آخر سطر بصوت ساخر ومتهكم: «نتمنى السلامة للجميع»، وتذكرت تلك المكالمات مجهولة الرقم التي كانت ترد على هاتفها الخليوي والتي تطلب منهم الابتعاد عن أماكن الخطر وعدم التعامل مع الإرهابيين – حسب وصفهم – والإبلاغ عن مكان الجندي الإسرائيلي المختطف جلعاد شاليط مقابل عشرة ملايين دولار.

***

(8)
وحيدون منذ البداية

دقت الساعة العاشرة صباحًا، جلست الأم على أحد المقاعد في الصالة بينما كان خالد يقف أمام باب حجرته، أما محمود فقد كان يذرع الصالة ذهابًا وإيابًا، وقد علا الوجوم وجوههم بعد أن أخبرتهم ليلى بكلام أم سائد وبمحتوى الرسالة القادمة من السماء.

ساد الصمت لدقائق، لم يقطعه سوى سؤال محمود وقد وجهه لليلى:

-كيف علمت أم سائد بذلك والكهرباء مقطوعة؟!

تبادلت ليلى نظرة مع والدتها، فأجابت الأخيرة بعد أن تململت في جلستها:

-لدى أم سائد راديو صغير يعمل على البطارية.

أكملت ليلى بعد أن تذكرت الأنشودة التي سمعتها في أثناء حديثها مع أم سائد:

-نعم، تذكرت، لقد أخبرتني بأنها سمعت تلك الأخبار من خلال الراديو.

ارتمى محمود على أقرب مقعد وقال:

- ألم يكفيهم القصف المتواصل، لقد دمروا كل شيء بـصواريخهم، ما الفائدة المرجوة من الاجتياح البري، مـاذا يحـاول الجـيش الإسـرائيلي إثباته؟! هل هي رسالة للقيادة الفلسطينية يخبرهم من خلالها بأن قوات الجيش قادرة على إعادة احتلال غزة مرة أخرى، أم هدفها فقـط التنكيـل بالشعب وإلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى بالمدنيين قبل انسحابها؟!

ترقرقت الدموع في عيني ليلى وتساءلت في يأس:

- أين العرب وحكامهم، ألسنا عربًا مثلهم، لـماذا يتركوننـا هكـذا وحدنا؟!

- نحن وحيدون يا ليلى، وحيدون منذ البداية.

كانت تلك الجملة هي الوحيدة التي خرجـت مـن فـم خـالـد، كـان مطرقًا، يشعر بأنه جزء من مسرحية لا يريد أن يكون له دور فيها حتـى ولو كان «كومبارسًا»، لـن يـشغل بالـه في البحـث عـن مـبررات للحـرب، فالحرب هي الحرب وإن اختلفـت طرقهـا وأسـاليبها، علـيهم أن يتركـوا الاهتمام بهذه الأمور للقيادة الفلسطينية، أليست هي من أوصلتنا إلى هـذه النقطة، أما العـرب فيكفـيهم التنديـد والـشجب، وعلـى الفلـسطينيين أن يتلقوا نصيبهم من هذه الفئة الباغية بقلوب مؤمنـة بقضاء الله وقـدره، لقـد

عزف عن الحديث في السياسة منذ زمن، كل ما يهمه الآن ويشغل تفكيره هو عودته إلى حجرته والانتهاء من الكتاب المفتوح أمامه.

تمتمت الأم بصوتٍ خفيض:

- قد أسمع حيًا لو ناديت، لكن لا حياة فيمن تنادي!

قامت أم خالد عن مقعدها، وقررت الذهاب إلى بيت أم سائد للاستيضاح منها عما سمعته في الراديو بينما توجهت ليلى، التي كفكفت دموعها، إلى المطبخ لتعد القهوة لها ولزوجها، عاد خالد إلى صومعته وبقي الطفلان يلعبان في حجرة والدتهما.

***

(9)

ابن سميرة

عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا، سمعت ليلى طرقات خفيفة على باب البيت، توجهت إلى الباب ومن دون أن تفتحه قالت:

- من هناك؟

- أنا عبد الله ابن سميرة، ومعي أختي غدير.

فتحت ليلى الباب، كان يقف على العتبة طفل في السابعة تقريبًا من عمره ومعه أخته على ما يبدو أنها تكبره عمرًا بعامٍ أو عامين.

- أنت عبد الله ابن سميرة؟

- نعم.

- كيف حال أمك وأخواتك البنات؟

- نحن بخير، عدنا صباح اليوم إلى بيتنا.. كنا في بيت جدي، لكن إسراء أصرت على العودة إلى البيت فعدنا.

ابتسمت ليلى من فصاحة الصغير، جلست على الأرض لتكون في مستوى طوله، ووضعت يدها على كتفه.

- ولماذا ذهبتم إلى بيت جدك، ومن هي إسراء؟

-ذهبنا لأن الجيش الإسرائيلي هدد بقصف المسجد المجاور لبيتنا، لكنه لم يقصفه حتى الآن، أما إسراء فهي أختي الكبيرة، لقد أصرت على عودتنا، فعدنا جميعًا للبيت هذا الصباح.

-آها.. ولماذا أنت في بيتنا يا عبد الله؟

-أرسلتني إسراء لإحضار كتاب من عند خالد، فهي تشعر بالملل وتريد أن تسلي نفسها بالقراءة.

-حسنًا.. تفضل بالدخول، أعتقد أنك تعرف طريقك جيدًا.

-نعم، شكرًا.

دخل عبد الله البيت وتوجه إلى غرفة خالد، وكأنه فعلًا يعرف طريقه، فلقد اعتاد الحضور هنا واستعارة الكتب من مكتبة خالد لأخواته البنات، هكذا علمت ليلى من ثرثرتها اليومية مع أمها عبر الهاتف. التفتت ليلى نحو الطفلة الواقفة أمام الباب، ابتسمت ودعتها هي الأخرى للدخول.

-لا.. شكرًا، سوف أنتظر عبد الله هنا.

-كما تريدين أيتها الجميلة، قولي لي.. هل أنت أصغر أخواتك البنات؟

- نعم.. أنا رقم سبعة!

ضحكت ليلى، وأمعنت النظر في الصغيرة صاحبة العينين اللوزيتين الخضراوين، يا إلهي كم تشبه أمها! كانت سميرة من أجمل فتيات الحي، بعينيها الخضراوين وشعرها الذهبي المنسدل دائمًا على كتفيها، كان الجميع يلقبها بأم الذهب لجمال شعرها، تزوجت سميرة ابن عمها توفيق وهي في السادسة عشرة من عمرها، وأنجبت سبع بنات ومن ثم رزقها الله بعبد الله، وبسبب شهرتها في الحي، كان أولادها يعرِّفون أنفسهم بأنهم أبناء سميرة، ولم يكن هذا الشيء يضايق والدهم، بل كان يفرح بهم كثيرًا ويقول مازحًا: «وأنا أيضًا ابن سميرة!».

عاد عبد الله سريعًا وفي يده كتاب وقد كُتِبَ على غلافه «زمن الخيول البيضاء»، أمسك يد أخته وغادرا بسرعة بعد أن ألقى السلام على ليلى.

وقفت ليلى تنظر إليهما وهما يبتعدان، ودعت الله أن يحفظهما من كل سوء، وأن يصلا منزلهما بخير.

يقع منزل والدهما في الناحية الغربية من الحي وهو بعيد نوعًا ما عن بناية أبو الفهد التي اعتلاها جنود الاحتلال، وهناك شارع ترابي جانبي يربط بين بيت أهلها وبيت سميرة الملاصق لمسجد الحي، ظلت

ليلى تشيعهما بنظراتها حتى اطمأنت أنهما قد وصلا للبيت.

أغلقت الباب وعادت إلى الداخل، توجهت إلى غرفتها وبدأت في تنظيفها وترتيبها، ثم جلست تراقب طفليها وهما يلعبان، وعندما عادت والدتها، سألتها عما حدث في زيارتها لأم سائد، فأخبرتها أن الأوضاع غير مطمئنة، وتمنت أن تمر هذه الساعات على خير.

***

(١٥)

غيوم

في ساعات المساء الأولى، كانت السماء متلبدة بالغيوم السوداء، وقفت ليلى أمام عتبة الباب تنظر إلى أعلى، شعرت بانقباض في صدرها، لم تكن تلك الغيوم تنذر بمطر، كانت تشبه سربًا من الغربان، هكذا تخيلتها ليلى، ضحك محمود من التشبيه الغريب، وطلب منها ألا تتشاءم.

دلفا إلى الداخل وأغلقا الباب خلفهما، جلست العائلة في الصالة على ضوء شمعة، تجاذبوا أطراف الحديث لفترة ثم لم يجدوا ما يفعلونه في هذه الليلة خصوصًا أن انقطاع الكهرباء سوف يستمر للصباح؛ لذلك غادر كل فرد من العائلة إلى حجرته طلبًا للدفء وخلودًا للنوم.

لم تتمكن ليلى من النوم، بينما غرق محمود والطفلان في نومٍ عميق، ارتفع شخير محمود مما زاد من أرقها، كانت تنتظر حدوث شيء ما، لا تدري كنهه، شعرت بأن هذه الليلة لن تمر مرور الكرام، هكذا ينبئها قلبها وتحدثها نفسها.

كانت أصوات القصف تعلو ثم تعود لتختفي من جديد، بينما أزيز الطائرات الحربية لم يتوقف قط، وأصوات طلقات الرصاص تأتي من بعيد

بانتظام، حاولت إخفاء رأسها تحت الوسادة حتى تتمكن من النوم وتساءلت بداخلها: كيف ينام محمود والطفلان ملء جفونهم رغم كل هذه الأصوات المزعجة من حولهم؟!

استيقظت ليلى في الساعات الأولى من الفجر، اختفت كل الأصوات، لم تعد تسمع لا صوت قصف ولا صوت أزيز، استغربتْ من ذلك وبشدة، جلست قليلًا في فراشها ثم قامت متثاقلة وهي تمسك برأسها الذي عصف به صداع شديد.

أضاءت شمعة ثم فكرت في إيقاظ محمود حتى يصلي الفجر، نظرت أولًا في ساعتها، ما زال الوقت باكرًا، لم تحن بعد صلاة الفجر، عدلت عن فكرة إيقاظه، ألقت نظرة على طفليها، وأعادت وضع الغطاء عليهما ثم توجهت إلى حجرة والدتها التي لم تكن قد استيقظت بعد، رفعت الغطاء عن أمها واندست بجانبها، وظل الهدوء المريب، الذي حلّ فجأة، يؤرقها ويشغل تفكيرها.

جاء صوت الأذان قويًا هادرًا، أيقظت ليلى والدتها ثم توجهت إلى غرفتها وأيقظت زوجها بينما أيقظت الأم خالد.

ارتدى خالد ملابسه على عجل واستعد للذهاب للصلاة في المسجد، استوقفه محمود وطلب منه أن ينتظره، فهو الآخر يريد الذهاب للصلاة في

المسجد، خصوصًا أن القصف قد توقف ولا صوت للطائرات الحربية في السماء، يبدو أن وقف إطلاق النار، الذي تحدثت عنه نشرات الأخبار، قد دخل حيز التنفيذ.

لم تكن ليلى مرتاحة من قرارهما المفاجئ بالصلاة في المسجد، لكنها لم تملك سببًا وجيهًا لمنعهما من ذلك، شيعتهما بنظراتها حتى اقتربا من بيت سميرة ودخلا المسجد، توجهت إلى غرفة والدتها وطلبت منها أن تصلي معها.

بعد انتهاء الصلاة، جلست ليلى وأمها على السجادتين، كانت الأم تقرأ ما تيسر لها من القرآن، بينما استغرقت ليلى في التسبيح والاستغفار.

كان الاستغفار هو الملاذ الأخير لها، كانت تشعر بأنه هو المخرج من عذاباتها، وهو بلسم أوجاع روحها.

كانت تجد الرضا والسكون في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»؛ لذلك كلما شعرت بالألم والضيق، لجأت إلى الاستغفار وهي تنشد الراحة والتخفف من الأحمال.

بعد أن انتهت الأم من قراءة القرآن، تجاذبت الحديث مع ابنتها التي أسرت إليها بمخاوفها، وشعورها بأن القادم سوف يكون أسوأ بكثير مما سبق.

حاولت والدتها طمأنتها فقالت لها:

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، نحن مؤمنون بقضاء الله وقدره يا ليلى، لا تجزعي يا طفلتي، واجعلي إيمانك بالله كبيرًا.

غيرت الأم حديثها، وأخبرت ليلى أنها قلقة على أم سائد، فابنها لم يتصل بها منذ بداية الحرب وهي لا تعلم عنه شيئًا، تتابع الأخبار أولًا بأول لعلها تسمع خبرًا يطمئنها، لكن منذ متى تأتينا الأخبار بالأنباء السارة، إن الإذاعات المحلية لا تنفك تورد أسماء الشهداء والضحايا، لا أحد يتحدث في نشرات الأخبار عن الأحياء، مسكينة أم سائد، أخاف أن تفقد عقلها لو حدث مكروه لوحيدها.

تمتمت ليلى:

-ليكن الله معها في محنتها، لقد عانت كثيرًا في حياتها، يبدو أنها سوف تعيش مسكينة وتموت مسكينة!

عندما عاد خالد ومحمود من المسجد، وقفت ليلى ورفعت سجادة الصلاة ثم توجهت إلى الصالة، بينما عادت الأم لقراءة القرآن، وجدتهما واقفين في منتصفها يتبادلان الحديث، كانا يتحدثان عن آراء الناس في المسجد، وعدم تصديقهم أنباء وقف إطلاق النار المزعوم، وقفت ليلى بالقرب منهما تستمع لما يحملانه في جعبتهما من أخبار جديدة، وبخاصة عن بناية أبو الفهد وقنص الجنود عددًا من المواطنين وبخاصة من ينظرون

من النوافذ أو يحاولون تفقد خزانات المياه فوق أسطح المنازل.

فجأة دوى صوت انفجار كبير، اهتزت جدران البيت، وكادت ليلى تسقط على الأرض من شدة الانفجار، هرعت نحو خالد الذي أمسكها بكلتا يديه، بينما جرى محمود نحو الغرفة التي ينام بها الطفلان.

خرجت الأم مسرعة من غرفتها، وسألتهما:

- ماذا حدث؟ وقبل أن تكمل جملتها دوى صوت انفجار آخر.

ألقت الأم بجسدها على خالد وليلى وكأنهما فرخا حمام، حاولت بيديها أن تحميهما، التحمت بهما حتى سكن الصوت مجددًا وعاد الهدوء مرة أخرى، لا تعلم كم من الدقائق قد مر على التحامهم، رفعت الأم رأسها ونظرت إلى ولديها، تفحصتهما بنظراتها وقالت:

- الحمد لله أنكما بخير.

خرج محمود من الغرفة يحمل الصغيرين، أسرعت ليلى نحوهما، احتضنت طفليها وحاولت أن تبدو متماسكة أمامهما.

- ما الذي حدث؟ سأل محمود خالد.

هز خالد كتفيه كمن لا يعرف الإجابة وقال:

- لا أعرف، يبدو أنهما صاروخان قد سقطا بالقرب من بيتنا.

لم يكمل جملته حتى سمعا صوت هرج ومرج في الشارع، سارع هو ومحمود إلى الخروج من البيت لتفقد المكان ومحاولة معرفة أين سقط

الصاروخان ومن كانا يستهدفان، اقتربت الأم من ليلى التي ما زالت تضم صغيريها إلى صدرها، وضعت يدها على رأس ابنتها ثم جلست بجوارها على الأرض.

***

(١١)

لا مفر من القدر

كانت جدائلها الذهبية تسبقها، كالمجنونة أخذت تصيح في الجميع، إسعاف.. إسعاف، أنقذوا بناتي، أنقذوا ما تبقى منهن، ثم سقطت على الأرض كمن لدغته أفعى، تتلوى وتتمرغ بالتراب.

وصل الصوت إلى مسامع أم خالد فقالت لابنتها:

- هذا صوت سميرة!

هرعت الأم إلى مصدر الصوت، بينما أسندت ليلى جسدها على الجدار الملاصق لباب البيت، لم تعد تحملها قدماها، وقعت على الأرض، ثم تسمرت في مكانها، هالها منظر سميرة وهي معفَّرة بالأتربة ومخضَّبة بدماء صغارها.

وهن صوتها وبالكاد كان يسمع، ظلت تنادي وتنادي «إسعاف.. إسعاف»، وعندما لم يجبها أحد، نادت من جديد «إسعاف يا الله.. إسعاف يا الله».

كان الغبار يملأ المكان ويحجب الرؤية، لكن على الرغم من ذلك، رأت ليلى الرعب والخوف في عيون الجميع، كانوا خائفين ومصدومين، تقدمت بعض النسوة من سميرة، حاولن حملها ومساعدتها على الوقوف،

وقد ألقت إحداهن غطاءً للرأس على شعرها، كانت مذعورة، تصرخ وتصرخ وتشير إلى مدخل بيتها، كان زوجها يحمل طفليه عبد الله وغدير، كان غاضبًا لكنه رابط الجأش، أسرع وناولهما لأحد الرجال ثم عاد من جديد لداخل البيت، هرع الصغيران إلى والدتهما وأمسكا بطرف ثوبها، كانا مذهولين مما حدث ولا يعرفان ماذا يفعلان.

عندما تيقن الجميع من تراجع الطائرات الإسرائيلية في السماء، سارع الرجال للدخول إلى البيت والمساعدة في إنقاذ الفتيات، كان الوضع مأساويًا، كانت جثث الفتيات متفحمة، لم يكن لهن ملامح، والأتربة تغطي الأجساد المهترئة، حملوا الجثث وأسرعوا بها لإحدى سيارات الإسعاف، كان واضحًا أن لا واحدة من الست فتيات كانت على قيد الحياة.

تجمع الرجال حول الأب المكلوم بينما تجمعت النساء حول سميرة، يذكرنها بالصبر عند المصيبة والدعاء إلى الله بأن يخلفها خيرًا في بناتها.

لكن سميرة كانت في عالم آخر، كانت تنظر إلى النساء من حولها، تارة تضع يديها على وجهها وتارة أخرى تضع يديها على صدرها، كانت تهذي بأسماء بناتها.. وقد سمعتها ليلى تقول:

-نادى الموتُ إسراء، لقد أصرت على عودتنا إلى البيت، قالت لي يا أمي لا مفر من القدر، لو كتب الله لنا الموت، فسوف نموت أينما كنا، دعينا نعُد إلى البيت جميعًا، فأنا لا أعرف أن أنام إلا على سريري في حجرتي، آه يا بنتي، لقد ناداك الموت أنت وأخواتك، ولبيت النداء.

صمتت قليلًا وضمت عبد الله وغدير إلى حضنها، وامتلأت عيون النساء بالدموع، استطردت بصوتٍ واهن:

-مع السلامة يا إسراء، مع السلامة يا ابنتي، انتبهي لأخواتك يا حبيبتي، يا فرحتي الأولى يا بنتي..

ثم أمسكت بجلباب أم خالد وقالت موجهة الحديث لها:

-إسراء لم تكن ابنتي فقط، لقد كانت أختي وصديقتي وحبيبتي، كانت الأم الثانية لأطفالي، أنت تعلمين ذلك، صحيح يا أم خالد؟!

هزت أم خالد رأسها في أسى ولم تعقب، فاستمرت سميرة في الكلام:

-كانت تحب القراءة والكتابة كثيرًا، تقول لي يا أمي عندما أكبر سوف أصبح كاتبةً مشهورة جدًا، سوف أكتب عن فلسطين وأطفالها، سوف أكتب عن الحرية والقدس، عن اللاجئين والأسرى، ماتت إسراء،

ماتت قبل أن تكمل عامها السادس عشر، قبل أن تحقق حلمها، ذهبت وأخذت أخواتها معها، فهيَ تكره مفارقتهن، ماذا أفعل بأقلامها ودفاترها، ماذا أفعل بكتبها؟!

وهنا انتابتها موجة أخرى من البكاء الحار، وتعالت أصوات النساء بالتكبير والترجيع، حاولن تهدئتها، لكنهن لم يستطعن ذلك، كان مشهد الفتيات وهن محمولات على أكتاف والدهن وأقاربهن مثيرًا للحزن والألم، ست فتيات في عمر الزهور قطفن مرة واحدة من بستان تلك المرأة المكلومة.

أمسكت سميرة بيد إحدى النساء وهمست بصوتٍ ضعيف:

- جاءتني إسراء قبل ساعات من سقوط الصاروخ على غرفتهن، كانت تحمل في حضنها غدير، قالت لي دعيها يا أمي تنام بجوارك، فهي خائفة جدًّا من صوت القصف، أخذتها منها ووضعتها بجانب عبد الله على السرير، قبلتني على جبيني وقبلت والدها، وتمنت لنا ليلة سعيدة ثم ذهبت، تركت غرفتنا وذهبت لقدرها، أخذت أخواتها وغادرت الدنيا كلها.

عادت للصراخ مجددًا، أخذت تهذي بكلمات غير مفهومة، تنادي على بناتها الواحدة تلو الأخرى، تطلب من إسراء مراجعة دروس دعاء

ونداء، ثم تنهر هناء لأنها كسرت لعبة صفاء، وتنادي على وفاء حتى تساعدها في إعداد الطعام.

لم تعد ليلى تحتمل أن تسمع المزيد من كلمات سميرة، عادت إلى داخل البيت، تجر قدميها جرًا، احتضنت ندى وأحمد وغرقت في بكاء مرير، كانت خائفة أن تفقدهما، دعت الله كثيرًا أن يحفظهما، ثم ما لبثت أن غابت عن الوعي.

عندما استيقظت وجدت نفسها على السرير وبجوارها محمود وخالد، سألت عن والدتها، فأخبرها محمود أنها لم تعد بعد من بيت سميرة.

تذكرت صورة سميرة وهي تهذي بأسماء بناتها، فأخذتها نوبة من البكاء، حاول محمود تهدئتها بينما وقف خالد منهكًا وحزينًا على فقدانه صديقته الصغيرة التي اعتادت أن تستعير الكتب منه، تلك الطفلة التي كانت ترسم مستقبلها بالألوان الزاهية، تلك الطفلة التي لم تكن تعلم ماذا تخبئ لها الأيام، كانت الدموع تلمع في عينيه وإن حاول إخفاءها.

جلس محمود بجانبها حتى نامت مرة أخرى، وهنا غادر خالد إلى غرفته مهمومًا مكسور الخاطر.

في فترة الظهيرة وبينما كانت الشمس تلمع في كبد السماء، خرجت ليلى من غرفتها، وجلست على عتبة باب البيت، لحق بها زوجها وتبادلا القليل من الكلام، ثم لاذا بالصمت.

رن هاتف البيت، فقام محمود للرد عليه، وعندما عاد أخبر ليلى بأن المكالمة من امرأة عراقية تتصل بشكل عشوائي على الأرقام الفلسطينية الخاصة بمدينة غزة، كانت تحاول أن تشد من أزر الغزيين وتقول لهم: «لستم وحدكم».

قال لها محمود إن هذه ليست المكالمة الأولى التي يتلقاها من امرأة عربية، فقد اتصلت امرأة ليبية في هذا الصباح بينما كانت ليلى نائمة.

تدحرجت دمعة على خد ليلى وتذكرت مكالمتها لإحدى العائلات العراقية في أثناء الحرب الأمريكية على العراق عام 2003، كانت أيضًا مكالمة عشوائية ضمن حملة أطلقتها إحدى الجمعيات الأهلية وقد شاركت فيها ليلى كما شارك فيها العديد من النساء الفلسطينيات، تمتمت بصوتٍ خفيض: «نعم، لسنا وحدنا»، ثم مسحت دمعتها بكف يدها واستمرت في التحديق في الفراغ.

***

(12)
لكل شيء بداية ونهاية

بحلول المساء، عاد التيار الكهربائي من جديد، فاجتمعت العائلة أمام التلفاز لمتابعة أخبار قصف المسجد واستشهاد بنات سميرة الست، قالوا في نشرة الأخبار إن صاروخين قد أُطلقا على المسجد؛ الصاروخ الأول أصاب مئذنته أما الثاني فقد سقط بالخطأ على غرفة الفتيات، فحوّلهنّ لأشلاء محترقة.

عندما عادت الجدة من بيت سميرة توجهت للمطبخ وأعدت المهلبية بالبرتقال للطفلين وقدمتها لهما.

- هل هذا وقت مناسب لتناول المهلبية يا أمي؟!

قالتها ليلى باستهجان واغرورقت عيناها بالدموع.

- وما ذنب الصغيرين يا ليلى؟! هل عليهما أيضًا أن يحملا الهم مثلنا منذ الآن؟! إنهما صغيرين لا يفهمان شيئًا، ويجب علينا أن لا نحملهما ما لا طاقة لهما به، أعرف أنك حزينة على استشهاد بنات سميرة، لكن هذا قدرهن، لقد ذهبن لمكانٍ أفضل بكثير من هنا، وسوف تتجاوز سميرة هذه المحنة، وتعود إلى طبيعتها يومًا ما، وسوف تقر عيناها بصغيريها عبد الله وغدير، وربما تنجب المزيد من الأطفال، سوف

يُهون عليها زوجها مصابها، فهو رجل مؤمن ومحتسب ويحبها، وأنا على يقين بأن الله سوف يخلفها خيرًا من ذلك.

ألقت ليلى بنفسها على صدر أمها وأجهشت بالبكاء، وعندما هدأت عادت وجلست مع زوجها تتابع ما تحمله النشرات من أخبار، كانت الأنباء تعلن عن قرب التوصل لاتفاق وقف إطلاق النار وانسحاب قوات الجيش الإسرائيلي من المناطق التي أعادت احتلالها، لكن لم يتم تحديد موعد رسمي لبدء وقف الحرب، تدخلات دولية وعربية دبلوماسية لعقد هدنة بين الطرفين المتصارعين، على حد تعبيرهم، فلقد اعتبروا الفلسطينيين طرفًا في العنف المتبادل رغم اختلال ميزان القوة لصالح الكيان الإسرائيلي، فالجيش الإسرائيلي هو الفاعل أما الشعب الفلسطيني فهو المفعول به.

كانت الأنباء تتردد وبقوة عن رغبة الرئيس الأمريكي الجديد، باراك أوباما، بألا يعكر أي شيء صفو احتفالات فوزه بالانتخابات الرئاسية واعتلائه سدة الحكم في الولايات المتحدة، لا يريد الرئيس الجديد أن تسرق الحرب الإسرائيلية على غزة الأضواء منه.

وكان هذا بشارة خير في قرب انتهاء الحرب، حسنًا يكفينا ما حدث، دعونا نلملم جراحنا وندفن شهداءنا ونحصي خسائرنا.

لكن إسرائيل كانت لها وجهة نظر أخرى، على أرض الواقع؛ سارعت في وتيرة عملياتها العسكرية وزادت من بطشها وفتكها بالفلسطينيين العُزَّل.

كانت أصوات القصف المتواصل بلا هوادة على الحي الهادئ تغطي على الأصوات التي تتحدث في التلفاز عن وقف إطلاق النار.

احتجت ندى على سيطرتهم على التلفاز عند عودة التيار الكهربائي، وطلبت منهم أن يسمحوا لأحمد ولها بمشاهدة قنوات الأطفال، خرجت ليلى ومحمود من الحجرة تاركين الصغيرين وحدهما لمشاهدة برامجهما المفضلة، جلسا في الصالة وقد أعدت لهما الأم الشاي ثم غادرت إلى حجرتها.

بادر محمود ليلى بالحديث:

- لم يتبقَ إلا أيام قليلة جدًّا على هذا الحدث الأمريكي الضخم، ما علينا إلا الانتظار وتوخي الحذر وحماية أنفسنا على قدر الإمكان حتى تنقضي هذه الأيام على خير.

- يتملكني إحساس بأن القادم أسوأ بكثير.

قالتها ليلى وارتشفت ما تبقى من كوبها.

- لا تكوني سوداوية يا ليلى، لم يتبق إلا القليل، سوف نعود إلى بيتنا ونستأنف حياتنا من جديد، سوف أعود للعمل كما سأعود لمناكفاتي

مع أبو عبد الله، سوف يعود كل شيء كما كان، لقد تعودنا على هذه الأمور، وصارت روتينًا يوميًا، نألفه ونتكيف معه، لا أنكر أن هذه الحرب قد فاقت كل الحروب السابقة في وحشيتها ودمويتها، لكن ماذا بأيدينا أن نفعل؟!

صمت محمود لبرهة ثم استأنف كلامه بقليل من التردد:

- لو استمرت الأوضاع هكذا، ربما أفكر جديًا بالهجرة إلى أي بلد أوروبي أو ربما إلى أمريكا نفسها، سوف نرحل معًا بأولادنا بحثًا عن حياة كريمة وآمنة لهما، حتى ولو كانت في إحدى تلك الدول التي تدعم إسرائيل وتغض الطرف عن جرائمها!

فوجئت ليلى بكلام محمود، فهذه هي المرة الأولى التي يأتي بها على سيرة الهجرة.

قدحت عينيها بالشرر وانتفضت من مكانها وقالت:

- لن أذهب إلى أي مكان يا محمود، لن أهاجر، لا أنا ولا ولديّ، سوف أعيش هنا وأموت هنا، وأدفن هنا، لن أغادر ولن أترك بلدي لهم، فهذا ما يريدونه بالضبط، دفعنا إلى الهجرة واقتلاعنا من أرضنا، وقذفنا إلى أي بلاد بعيدة، لن أسافر إلى أي مكان، ولن أعيش في بلاد غريبة عني، لا أعرفها ولا تعرفني، لن أرحل، وأرجو منك ألا تأتي على هذه

السيرة مرة أخرى.

غادرت وهي غاضبة إلى الحجرة التي بها طفلاها، حملت أحمد في حضنها وضمته بقوة إلى صدرها، حتى كادت تهشم عظام الصغير الذي تملص منها وعاد وجلس بجوار أخته يتابع برامج الأطفال.

جلست قليلًا ساكنة ثم قررت أن تتوضأ وتصلي، وهي تنشد الراحة والسكون في تلك الصلاة.

استغرقت وقتًا طويلًا وهي تجهز نفسها، وعندما بدأت تصلي، انسابت دموعها بغزارة، ودعت الله كثيرًا بأن يخفف عنها أحمالها التي تثقل كاهلها:

- يا الله، إنك تعلم ما بنفسي ولا أعلم ما بنفسك، وتعرف حقيقتي ولا أعرف حقيقتك، وتدرك ما بي ولا أدرك ما بك، إني أشكو حزني وبثي إليك وحدك، فارحمني يا الله من الوساوس التي تقهرني، والأحزان التي تنهش قلبي، خفف عني الأحمال التي تثقل ظهري، امنحني الراحة والسكون، ارزقني السكينة والطمأنينة التي أنشدها وابتغيها، أعطني القوة لأتحمل حياة لا أطيقها ولا أستسيغها، اللهم إني واقفة ببابك فلا تردني خائبة الرجاء، اللهم إني واقفة ببابك فلا تردني خائبة الرجاء.

واستغرقت في البكاء والنحيب مرة أخرى ثم ما لبثت حتى غفت قليلاً فوق سجادة الصلاة، وعندما أفاقت شعرت بالحياة تدب في أوصالها من جديد.

جلست مع طفليها تتابع إحدى مسلسلات الكرتون، بينما كان محمود يستمع لنشرة الأخبار المحلية عبر راديو هاتفه الجوال في الصالة، وقد سمعته يقول لوالدتها إن قوات الجيش الإسرائيلي قد اخترقت موجات الإذاعات المحلية وإنها تبث التحذيرات من خلالها، وإن رجال المقاومة قد ردوا على ذلك باختراق إذاعة الجيش الإسرائيلي وبثوا من خلالها الأغاني الفلسطينية الحماسية.

***

(13)
الهدوء

أيقظها محمود برفق لصلاة الفجر، طبع قبلة حانية على جبينها وكأنه يطيب خاطرها عما حدث بالأمس، أومأت ليلى برأسها وكأنها تقول له: «لا عليك، لم يحدث شيء».

كانت صامتة والجرح في قلبها غائر، كانت أمارات الحزن محفورة على جبينها، لم تتكلم مع أحد، ولم تعلق عندما اقترحت الأم أن يصلوا صلاة الفجر جماعة.

تقدم خالد وأمَّهم، كان صوته عذبًا رقراقًا، وقد أدخل السكينة والطمأنينة على قلوبهم جميعًا، وعندما انتهوا، جلسوا على سجاجيد الصلاة وأخذ خالد يقص عليهم قصة قرأها في أحد الكتب، كانت القصة تتحدث عن الصبر على الشدائد والرضا بما كتبه الله، وفي نهاية القصة أضاف قائلا:

- إن الذنوب وإن عظمت فإن لها غافرًا، وإن الشدائد وإن كثرت وطالت فإن لها فارجًا، والله لا ينسى عبده طالما ظل عبده يسأله ويتقرب منه بالدعاء والنوافل.

أومأت أم خالد برأسها وقالت:

- ونعم بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل.

ساد الصمت برهة، ثم انصرف كل منهم إلى شأنه، عاد خالد إلى حجرته وذهبت ليلى ووالدتها إلى المطبخ لإعداد طعام الإفطار أما محمود فبقي في الصالة يقرأ القرآن.

استيقظ الطفلان وتناولت العائلة الطعام، جلس أحمد في حضن جدته التي أمسكت أصابع يده وبدأت تلاعبه وتقول: «هذه البيضة» ثم تثني إصبعه الأول، «وهذا اللي جاب الحطب» وتثني إصبعه الثاني، ثم تنتقل للإصبع الثالث وتقول: «وهذا اللي سلقها»، ثم للإصبع الرابع: «وهذا اللي قشرها»، وأخيرًا تثني الإصبع الخامس وتقول: «وهذا اللي أكلها»، ثم تقبض بكف يدها على أصابعه كلها وتسأله: «وين أغنامي؟»، فيجيبها ضاحكًا: «راحوا على البحر»، تبدأ في دغدغته فيكركر وتعلو ضحكاته.

أخذت ندى تقفز بجوار جدتها وتقول لها ضاحكة: «وأنا.. وأنا»، أمسكتها الجدة وأجلستها في حضنها وبدأت تلاعبها نفس اللعبة من جديد، تعالت ضحكات الصغيرين وابتسمت ليلى أخيرًا.

عندما دقت الساعة التاسعة صباحًا، طلبت أم خالد من محمود أن يتفقد خزان الماء الإضافي في الحديقة، ثم حملت بعض الخبز والبيض

المسلوق وغادرت إلى بيت سميرة.

خرج محمود وتبعه أحمد، فحص خزان الماء فوجده شبه فارغ، فتح صنبور ماء البلدية ثم بدأ في تعبئة الخزان من جديد.

قبل أن تبدأ في تنظيف الأواني، وقفت ليلى أمام نافذة المطبخ تستنشق بعض الهواء النقي المعبق برائحة النعناع والزعتر البلدي، ثم ألقت نظرة سريعة على ندى التي كانت تلعب «الحجلة» على بلاط الصالة بالقرب من باب المطبخ.

***

(14)
العاصفة

– أين أنا؟!

تساءلت ليلى وهي ترتجف:

– أين أنا، وما هذا اللوح الخرساني الذي يغطيني، لا أستطيع تحريك جسدي، والكثير من الغبار عالق في فمي وفي أنفي، هل مت، وهذا هو قبري؟! لكن أين كفني الأبيض؟! لا أذكر شيئًا، يا إلهي، ما الذي حدث لي؟ وأين هي عائلتي؟

لا.. لا أعتقد أني ميتة.. هناك خطبٌ ما، لكني لا أذكر ما هو، وذاكرتي لا تسعفني بتذكر ما جرى، لقد كنت واقفة بجوار باب المطبخ أتحدث مع أمي، خالد في غرفته وندى تلعب في الصالة بينما خرج محمود لتفقد خزان الماء بالخارج ولقد لحق به أحمد.

لا، لم أكن بجوار الباب أتحدث مع أمي، تذكرت، لقد غادرتْ إلى بيت سميرة، لقد كنتُ أقف في المطبخ أمام النافذة، لكن ما الذي جرى؟!

لا أدري! الظلام يعم المكان ولا أستطيع الرؤية، لا أعرف هل فقدت بصري أم أن الليل قد حل، لا أعرف شيئًا ولا أفقه شيئًا.

أمي.. محمود.. خالد!

بدأت ليلى بمناداة الجميع لعلهم يسمعونها، حاولت دفع اللوح الخرساني لكنها ضعيفة جدًّا ولا تقوىَ على فعل شيء، تحسست جبينها وشعرت باللزوجة، على ما يبدو أنها جُرحت في رأسها وهذا السائل اللزج ما هو إلا دمها.

عادت من جديد تنادي عائلتها، وأخذت تركل اللوح بقدميها لكن دون جدوى، وفجأة سمعت صوتًا ضعيفًا على مقربة منها.

- ليلى.. ليلى!

- أم سائد؟!

- ......

- أين أنتِ يا خالة؟ وما الذي جرى؟

- لا أعلم يا ابنتي، لم أدرِ بحالي إلا وأنا ملقاة على الأرض ويجثو على صدري هذا العمود الإسمنتي، إنه يقسمني نصفين يا ليلى، لا أرى جزئي السفلي ولا أشعر به.. أعتقد أن صاروخًا أو ربما قذيفة سقطت على البيت.

- لا أدري.. ربما، يا إلهي.. أشعر بالقلق على عائلتي، يا ترى هل أصابهم مكروه؟ هل ماتـ... ـوا؟

لم ترد أم سائد، فأردفت قائلة:

- لا، لم يموتوا، بل سوف يأتون للبحث عني وإخراجي من هنا..

أنا واثقة من هذا.

بدأت ليلى بالبكاء، وعادت تدفع اللوح الخرساني بجنون، أخذت تصرخ وتصرخ غير مصدقة ما هي فيه!

حاولت أم سائد تهدئتها لكنها لم تفلح، واستمرت ليلى في الصراخ ومناداة أمها وأخيها وزوجها.

جاء صوتٌ من بعيد.. أخذت تلتفت ليلى يمينًا ويسارًا كالمجنونة.. إنه صوت ندى..

- ماما.. ماما.. هل هذه أنتِ؟

- نعم يا ندى.. أنا ماما.. حمدًا لله أنك بخير.. أين أنتِ يا صغيرتي؟

لم تتمالك ليلى نفسها وأجهشت بالبكاء..

- أنا بالمطبخ يا أمي، لا أعرف كيف وصلت إلى هنا!

- هل أنتِ بخير يا صغيرتي؟ هل أصابكِ مكروه؟

- أنا بخير يا أمي، لا أعلم ما الذي حدث، لكني وجدت نفسي هنا داخل المطبخ، بجوار الثلاجة، وهناك ما يشبه الحائط قد وقع عليها، أما أنا فأجلس أسفله.. ما الذي حدث يا أمي.. وأين أبي وأحمد؟

- لا اعلم يا حبيبتي.. لا أعلم شيئًا.. فأنا لا أستطيع الحراك، هناك ما يشبه اللوح الخرساني قابع فوقي، يمنع حركتي، ابقي كما

أنـتِ.. سـوف يـأتي أحـد مـا ويخرجنـا مـن هنـا قريبًـا.. لا تقلقـي يـا صغيرتي.. كل شيء على ما يرام، سوف ينتهـي كـل شـيء قريبًـا.. إنهـا مسألة وقت ليس أكثر، سوف يبحثون عنا وسوف يجدوننا إن شاء الله.

حاولت ليلى أن تبدو متماسـكة حتـى لا تـثير خـوف صـغيرتها، وبدأت في تنظيم شهيقها وزفيرها لتهدئة نفسها والـسيطرة علـى خوفهـا واستعادة تركيزها.

- ليلى! مع من تتحدثين؟

جاء صوت أم سائد ضعيفًا.

- إنها ندى.. وهي بخير الحمد لله.

- الحمد لله.

- أم سائد، كيف أنتِ الآن؟

- لا أشعر بأي ألم.. كما أنـي لا أشـعر بـأطرافي.. هنـاك مـا يـشبه الخدر يسري فيها، أشعر بأني على ما يرام.. زال الوجـع تقريبًـا، وأرى نورًا يعم المكان، ربما هو نور الصباح.

- نورًا؟! وماذا عنكِ يا ندى، هل ترين نورًا؟

- كيف أرى نورًا يا أمي وقـد حـل الظـلام، هنـاك بعـض النجـوم الصغيرة في السماء، أراها بوضوح من خلال ثقب في الجدار.

- عن أي نورٍ تتحدث أم سائد إذن؟!

استطاعت ليلى أن تميز الأشياء من حولها، فقد اعتادت عيناها على الظلام وباتت الرؤية ممكنة نوعًا ما، شعرت بالارتباك والخوف الشديد لكنها تماسكت وقالت موجهةً حديثها إلى أم سائد:

- لا تقلقي يا خالة، سوف يأتون قريبًا ويخرجوننا من هنا.

- أنا لستُ قلقة، ولكنني أفكر في سائد كثيرًا.. لا أريد أن يراني على هذا الحال.

أخذت ليلى تتحدث مع ابنتها وتواسيها، أخبرتها أنه لن يصيبها مكروه، وأنها هنا لحمايتها، كانت تكذب؟! نعم كانت تكذب، فهي نفسها بحاجة إلى من يحميها، وبعد برهة تذكرت أم سائد، عادت فنادت عليها، لكنها لم تجب، نادتها عدة مرات ولم تسمع أي جواب، حتى صدى الصوت بخل عليها بالرد.

هل ماتت أم سائد؟ هل هي نائمة؟ وما هذا النور الذي رأته ونحن بالليل، لقد ذهبت أم سائد، نامت بعد أن أغلقت عينيها ولن تفتحهما مرة أخرى إلى الأبد، رحلت وبتُ وحدي، مطلوب مني أن أكون مسئولة عن ندى، وتلك الطفلة التي تقبع بداخلي من سيكون مسئولًا عنها؟ ولو متُ الآن، من سيكون مسئولًا عن ندى؟ أسئلة هوجاء تتسارع وتتصارع

بداخل رأسي.

لا، هذه ليست النهاية التي أريدها، لن أموت هنا تحت الأنقاض، أريد أن أموت هناك في بيتي وعلى سريري، يُحيط بي أولادي وأحفادي وقد بلغتُ من العمر عتيًا.

لن أموت الآن فلدي الكثير من الأعمال التي أريد أن أنجزها، الكثير من الأعباء التي أريد أن أتخفف منها، والكثير من الأحباب الذين أريد أن أودعهم!

هناك المزيد من الأطفال الذين أرغب في إنجابهم، هناك المزيد من الأحلام التي أتمنى تحقيقها، الكثير من الضحكات التي أريد اقتسامها مع أولادي، الكثير من الذكريات التي أريد أن أتركها خلفي.

هناك الكثير من الكتب التي لم أقرأها، والمزيد من التجارب التي لم أختبرها، والعديد من البلاد التي لم أزرها بعد، هناك حياة لم أعشها وسنين لم أقضها، أشعر بأن عمري قُصف باكرًا، وأن حياتي اقتطفت قبل أوانها.

لن أموت، ليس الآن وليس بهذه الطريقة، أغمضتْ عينيها وأخذتْ نفسًا عميقًا وبدأت مجددًا في دفع اللوح بيديها وقدميها لكن دون جدوى.

***

(15)

وجبة طعام

رأت فأرًا ثم أتبعه آخر، ومن الجهة المقابلة رأت الثالث يزيح بعض الحصى ويظهر المزيد من الفئران، الكثير منها، على ما يبدو أنها تعرف طريقها جيدًا!

من أين جاءت كل تلك الفئران؟ هل جذبتها رائحة الموت، بدأت تسمع صوت نميم الفئران وهي تنهش ذلك الجسد اللامرئي القابع هناك، صوت تمزيق ملابس ورائحة لحمٍ ممضوغ، شعرت ليلى برغبة في التقيؤ.

«لكِ الله يا أم سائد»، حاولت أن تقنع نفسها بأن سلخ الشاه بعد موتها لن يضيرها بشيء لكن عقلها ما انفك يصور لها ذلك المشهد المرعب والمقزز أمام ناظريها، وبداخلها أخذت تمني نفسها بأن لا يكون لها نفس المصير، لا تريد أن تكون وجبة طعام دسمة لتلك الفئران الجائعة، لا أعتقد بأن أم سائد في أبشع كوابيسها قد تخيلت تلك الطريقة المزرية التي ترحل بها عن هذه الدنيا.

تذكرت الطفلة شهد التي اغتالتها قوات الاحتلال في أثناء اجتياحها الحي المجاور لهم قبل أسبوع، والتي لم يستطع أحد من أفراد العائلة إنقاذها، ظلت جثتها ملقاة على جانب الطريق، وفشلت كل

محاولات أخيها للوصول إليها، حتى إنه أصيب في كتفه وقدمه، ظلت شهد ملقاة هناك حتى جذبت رائحة الدم الكلاب الضالة التي وجدت فيها وجبة مجانية، أصبحت تلك الطفلة التي لم تتجاوز الخامسة من عمرها وجبة طعام لتلك الكلاب على مرأى من أمها وأبيها وكل أفراد عائلتها، رأوا صغيرتهم تؤكل دون أن يجرؤ أحد منهم على فعل أي شيء.. نهشت الكلاب عينيها الصغيرتين، ونفلت شعرها الأسود القصير، وقضمت أصابعها البضة، نشبت مخالبها في كل جزء من جسدها الصغير الطاهر والبريء.

يا إلهي إن روحي تتسرب مني، تنزع مني الرمق الأخير من الحياة، لا قوة لي على تلك التخيلات التي لا تفارق مخيلتي الهشة والضعيفة، ماذا لو كان لندى نفس المصير؟ لا.. لا.

يا ترى عندما تنتهي تلك الفئران من أم سائد، من ستكون وجبتها التالية أنا أم ندى؟!

أخذت تهز رأسها لعلها تخرج تلك التشوهات من رأسها، لن يحدث هذا لها أو لصغيرتها، لكن ماذا عن صغيرها أحمد؟ ترى أين هو الآن؟ وما مصيره؟ هل ما زال على قيد الحياة؟ وماذا عن أمها وزوجها وأخيها؟

أين الجميع؟ لماذا لا يأتون وينقذوننا؟ أشعر أن الوقت بطيء جدًا، والخوف ينهشني، ندى تقول إن الليل قد حلّ وإن النجوم تلمع في السماء، إذن نحن هنا منذ الصباح، لقد مر وقتٌ طويل على وجودنا هنا.. أين ذهب الجميع؟!

أجهشت بالبكاء وتساءلت بجنون لماذا لا يسقط هذا اللوح الخرساني فوق رأسها ليهشمه فترتاح من كل تلك اللحظات العصيبة والأفكار القاتلة التي تعصف بها من دون رأفة أو رحمة.

***

(16)

أشباح لا ذكريات

إن ترقبي الطويل وانتظاري، المشوب باليأس، لِمَنْ سوف ينتشلني أنا وصغيرتي من تحت الأنقاض جعلني أغرق حتى أذنيّ في مستنقعات الذكريات التي لا تنتهي.. أتشبث بذرات الغبار من حولي.. أريد الخروج.. لكن الخروج من ماذا إلى ماذا؟

تداهمني تلك الذكريات التي لم أفكر في يوم من الأيام أنها سوف تصبح ذكريات تستدعي انتباهي، كنت أعتقد أنها أحداث يومية غير مهمة ولن تعلق في ذاكرتي أبدًا.

من تلك الذكريات ما حدث في أحد أيام خريف هذا العام، عندما ذهبنا للتسوق، كانت الرياح خفيفة وبعض أوراق الأشجار تغمر شارع عمر المختار في ميدان فلسطين، لا أعلم من أين جاءت تلك الأوراق، فالشارع يخلو من الأشجار، وتزدحم به محلات بيع الملابس والأحذية، كان الشارع يعج بحركة المارة الدءوبة، هناك من يشتري وهناك من يبيع، وهناك من يتفرج، بالإضافة إلى عابري الشارع في طريق العودة إلى بيوتهم، ورائحة الشاورما تفوح من أشهر المطاعم الشعبية في شارع فهمي بك.

كنا قد اشترينا بعض الملابس لأحمد وندى، استعدادًا لاستقبال فصل الشتاء، وكعادتنا عند التسوق، ننهي رحلتنا في مطعم «الحاج»، نتقابل حول المائدة الرخامية ونأكل الشاورما الساخنة قبل عودتنا للمنزل، في ذلك اليوم ظل أحمد صامتًا ولا يريد أن يشاركنا الطعام، كان حانقًا وغاضبًا لأنني رفضت شراء الغطاء الأخضر لوسادته الذي رغب به، متعللة بأنه لا يناسب لون لحافه الأزرق، وأنه سوف يشوه منظر حجرته ذات الطلاء الأزرق اللبني!

تحدث معه والده، وشرح له وجهة نظري، تفهم الأمر على مضض، وتناول الطعام.

كنت قد نسيت تلك الحادثة، فما الذي استدعاها الآن، تلك الذكريات المقيتة هي التي تهاجمني أولًا.. لم تعد تترك الفرصة أمام غيرها، تريد أن تتربع على ذاكرة الزمن في تلك اللحظات، فيمَ كنت أفكر عندما رفضت شراء ذلك الغطاء؟ لماذا حرمت طفلي من شراء شيء أراده وبقوة؟! لو يعود بي الزمن مرة أخرى، لكنت عدلت عن رأيي، لو كتب لي الخروج من هنا، فسوف أبحث عن ذلك الغطاء وأشتريه، وليذهب تناسق الألوان إلى الجحيم، لن أغضبه مرة أخرى، يكفي أن أرى السعادة تغمره لحصوله على ما يريد، أعترف في هذه اللحظة أن صخب عينيه

وابتسامته البريئة كانا يعادلان الدنيا وما فيها.

كم أتوق لأطبع قبلة دافئة على جبينه الآن، أين هي اختراعات هذا العالم الغبي الذي عجز عن نقلي حيث يوجد صغيري، عجز عن لم شملي به، عجز عن تمكيني من احتضانه ولو لدقائق معدودة.

لو كان مقدرًا لنا الموت، أتمنى أن أضمهما إلى صدري، ندى وأحمد، لعلنا ننام معًا ونصحو معًا في عالم آخر لا يوجد به تلك الكائنات المشوهة والقلوب الخَرِبَة، عالم لا يوجد به آلات القتل والتشريد، عالم خالٍ من كل شرور الأرض، خالٍ من كل شيء إلا صفاء السرائر وحُسن النيات وطيب الأفئدة.

عبثًا أحاول لملمة ذكرياتي المبعثرة هنا وهناك، إنها تثقلني، وتسحبني إلى الأسفل، تمنع عني الهواء، أختنق بالكم الهائل من الذكريات المتراكمة والمتصارعة في حربها الضروس للصعود إلى السطح، كل منها يريد أن يسجل حضوره الآني، تنزع عني آخر أوراق التوت، تعريني أمام نفسي بلا رحمة.

لماذا لا أنام؟ ربما يتوقف سيل تلك الذكريات الذي لا ينتهي، ربما حلت الأحلام مكانها، ربما كانت أخف وطأة، وأكثر رحمة بذلك القلب المسكين الذي يرزح تحت طائلة ذكريات لا ترحم، لكنها ليست

ذكريات بل أشباح تحوم حول ما تبقى مني.

يومًا ما سوف أطفئ الأضواء عن هذه الفترة من حياتي.. هذا ما أتمناه.

***

(17)
ذاكرة مكتظة

يعنّ لي بعض الأشخاص ممن تكتظ بهم ذاكرة مراهقتي وشبابي، أولئك البشر الذين جمعتني بهم الأقدار ذات يوم، كبارًا وصغارًا ممن شاركوني أيامي بأفراحها وأحزانها في بيتنا القديم في المخيم، جل ما أريد أن أفعله الآن هو أن أقف على أعتاب بيوتهم، أناديهم بأحب الألقاب إلى قلوبهم، نجلس معًا أمام الباب، على تلك الأحجار القديمة المنسية التي تحفظ ذكرياتنا كلها، تلك الأحجار التي شاركتنا أسرارنا وحكاياتنا، ضحكاتنا وهمومنا، دموعنا المخبأة في أحداقنا ومخاوفنا من المجهول القادم بعنف.

عبثَ الدهرُ بخريطة وجوههم كما عبثت الأحزانُ في خرائط قلوبهم، تلك الأعمار التي اكتسبوها رغمًا عنهم، أعمارًا فوق أعمارهم، تلك الظهور المحنية والقلوب المفطورة، تُرى هل هناك متسع من أجل حكاية جديدة، وقت مستقطع من منغصات الحياة وهنّات القدر؟!

أناديكم.. كم أنا عطشى لكم، لحكاياتكم، لأنفاسكم، لوجودكم.

افتحوا لي الأبواب الموصدة، فأنا تلك الطفلة التي أحببتموها ذات يوم، تلك الفتاة التي خطبتم ودها مرات ومرات، تلك المراهقة التي

أعياكم الركض وراءها، تلك المجنونة التي أوثقت النجوم بالحبال!

افتحوا لي صدوركم، كي أختبئ بداخلها، فلا يعثر علي إنسٌ ولا جان، أنا الهاربة من كل هذا العبث، الباحثة عن نقطة أمان في صدر أناسٍ كانوا جزءًا مني دون أن أدري، كانوا عصب حياتي وعمود خيمتي!

لماذا لم أدرك هذا إلا الآن، وأنا على مشارف الهاوية؟ كم أنا بحاجة إليهم، لو كانوا هنا، لحملوا هذه الأحجار التي تغطيني، لطرزوا لي وشاحًا صوفيًا ودثروني به لعلي أهدأ قليلًا وتتوقف رعشات جسدي المتعب وخفقات فؤادي التعس.

لستُ آبهة لو متُ صغيرة السن، لقد عشت حياة حافلة بكل شيء، لم تبقَ تجربة إلا وخضتها، لم يبقَ حلم إلا حلمته ولا أمنية إلا حققتها، لم يستعصِ على طموحي شيء.

لو متُ الآن فسوف أترك خلفي حقيبة ممتلئة بآلاف الذكريات والتجارب والوجوه، لقد عشت مغامرات حقيقية، مغامرات قد لا يتمناها البعض لكنها بالتأكيد أمنية لشخص ما، شخص يقطن، ربما، في الجهة المقابلة من الدنيا، لقد كانت حياتي، على قصرها، صاخبة، زاخرة بالأحداث، مزدحمة بالحكايات التي لو قدر لي أن أعيش لكانت من أجمل الحكايات، وأكثرها غرابة، التي قد ترويها الجدة لأحفادها!

لكن تلك الجدة للأسف لن ترى أحفادها، لن ترى صغارها يكبرون أمام عينيها، لن تشاركهم في حفل تخرجهم في الجامعة، لن ترقص في أعراسهم، ولن تحمل أولادهم بين يديها، لن تمرض، لن تشيخ، لن تحصد ثمرة تعبها على أولادها، ولن يردوا لها الجميل في كبرها.

سوف يفوتها الكثير من الأحداث والمواقف، الكثير من الضحكات والحكايات والقصص.

أريد أن أصرخ بأعلى صوتي، لعل صرخاتي تحرك ضمير العالم النائم، أريد أن تخترق كلماتي آذان البشر الذين أصابهم الصمم، أريد أن أصرخ بكل ما أوتيت من قوة وأقول لهم:

أنا إنسان ولي حقوقي المشروعة، ومن حقي قبل أن أموت، أن أشرب رشفة ماء، وأن أتنفس القليل من الهواء النظيف، من حقي أن أرى الشمس لآخر مرة قبل أن تغمض عينيّ للأبد.

***

(18)

اكتبي

مع مرور الوقت ببطء شديد وبعد أن اطمأنت على صغيرتها وتحدثت معها قليلًا، اجتاحتها كآبة عارمة وتمتمت بينها وبين نفسها قائلة:

-لطالما كنتُ هكذا، روحًا ميتة في جسدٍ حي!

عادت أشباح الذكريات تطفو من جديد، تذكرت كلمات والدها، دعمه ومساندته لها، كلما فاجأتها رياح الكآبة الموسمية، تشعر بأن روحه تحلق خلف اللوح الخرساني، تريد أن تقول لها شيئًا لكنها لا تدري كنهه، حاولت أن تسترخي وتسترق السمع، لكن لا شيء يصل إلى سمعها.

كان والدها يحب كتابة الرسائل، مولعًا بها، يتبادل معها ومع أخيها الرسائل وهم في نفس البيت، كان يضع رسائله في مظروف ذي ألوان زاهية ومعطرة أحيانًا، يشتري الورود الحمراء ويجففها ومن ثم يرفقها مع رسائله إليهما، كانت له عادات غريبة بالنسبة لأب في الخمسين من عمره، لكنهما أحبا تلك الأفعال منه.

تتذكر الآن آخر رسالة كتبها إليها بخط يده قبل استشهاده بيومٍ

واحد طالبًا منها أن تنفّس عن كآبتها بالكتابة، فالكتابة هي باب الخروج من متاهة الاكتئاب التي تحاصرها، إنها تتذكر كل كلمة كتبها في تلك الرسالة:

«اكتبي.. أفرغي دواخلكِ على ورقة بيضاء معطوبة بوجع الاشتياق..

اكتبي.. اسكبي آلامك وأحزانك الدفينة على رخام الحروف.. لعل حرف يعتزل مهنته الأزلية ويمتهن الطب ليريحك من عناء ألم يتسرب من حنايا الروح.

اكتبي.. يا يمامة الحزن.. يا عشقًا اندثر بين وريقات تخفي الحنين بين نقطة / فاصلة هاربة من عتاب حمائم الغريبة.

اكتبي.. ودعي حلمك يمتشق سهام الكون لا يبوح ولا يخبئ، دعيه شفافًا طاهرًا يروي حكايا أنثى لا بداية لها ولا نهاية.

اكتبي.. ودعي الأصفر يتسرب من دفاتركِ القديمة ويتساقط مع كل رنة قلب، مع كل أنة ألم.

يا وردة.. عطرها لا يفوح..

يا جرحي.. الذي لا يبوح..

ابكِ حروفًا.. لا تصدأ..

ابكِ كحلًا يزين أرصفة الأوهام

اكـتبي.. لا تخـافي.. لا تجزعـي يـا صـغيرة.. فمـن كتـب لم يمـت ناقص حرفٍ!

اكتبي.. لا تأبهي.. لا تلتفتي.. لصرخات جنون تشد أذنيكِ..

اكتبي.. لحنًا خالدًا من أوجاع روحٍ غريبة وسط غابـة مـن بـشر.. بلا خيل.. بلا فرس..

اكتبي.. لن تندمي.. لن تندمي..

اكتبي..

اكتبي..

اكتبي..».

***

لكن من أين لي يا أبي بورقة وقلم الآن؟ كيف السبيل إلى ذلك وأنـا لا أستطيع حتى تحريك يدي، يدي اللتين كانتا قبل قليـل يـدفعان اللـوح الخرساني بقوة، سكنتا بجانبي وكأنهما ليسا مني، لا حكـم لـي عليهمـا الآن.

ليتك كنت هنا لتخفف عني ولو قليلًا، يا أبي إني أستشعر روحك بالقرب مني، هل جئت لتأخذني معك، لتخفف عني عبوري للعالم الآخر من دون خوف أو وجل، صدقني أنا لستُ خائفة من الموت لأني على يقـين

بأنك تنتظرني، لقد سبقتني في الرحيل وأنت الآن تجهز بيتنا الجديد هناك، أستطيع أن أتخيله جيدًا، سوف يكون على ضفاف نهرٍ واسع نرى منبعه ولا نرى مصبه، بيتنا صغير ومرتب، هكذا تحبه، بسيطًا مثلك، تملؤه الأنوار والستائر البيضاء التي لا تمنع دخول الشمس، فأنت تكره أن يكون بينك وبين الشمس حاجز، دائمًا كانت نوافذ بيتنا مشرعة مشرقة بك ولك، وسوف تكون هكذا للأبد.

لن يخطفك الموت منا مجددًا، لن تكون على موعد معه مرة ثانية، لن تستقل سيارة ليست لك، لا أستطيع أن أصدق أنك ارتضيت أن تركب تلك السيارة، لطالما أحببت أن تمشي إلى المسجد في صلاة الفجر، تعد خطواتك وتقول في سرك: «إنها خطواتي نحو الجنة، إنه النور الذي يمشي بين قدمي»، ذلك النور الذي أردت أن تغمرنا به يوم القيامة.

لن أنسى ذلك اليوم أبدًا، لقد استيقظت مبكرًا كعادتك، أيقظتَ أمي لتتهيأ لصلاة الفجر ثم أيقظتني، طبعتَ قبلة حانية على جبيني، ابتسمتُ لك نصف ابتسامة، وهممتَ أنت بالخروج، لكن شيئًا ما استوقفك عند الباب، توقفتَ وأدرتَ رأسك ناحيتي، ابتسمتَ وقلت: «لا تتأخري»!

قمتُ من فراشي متكاسلة لأتوضأ، ورنتْ في أذنيّ كلمتك «لا تتأخري»، نفضتُ عني غبار الكسل وفرشتُ سجادة الصلاة، استقبلتُ

القبلة وشرعتُ في صلاتي، سجدتُ واستغرقتُ في الدعاء لك ولأمي ثم دعوتُ الله أن يفك أسر أخي خالد وأخلصتُ بالدعاء حتى فاضتْ دموعي.

شق ستار الفجر صوت انفجار ضخم، اهتزت له جدران منزلنا، هرعت أمي إلى النافذة لتستعلم عن مصدر الانفجار أما أنا فلم أحرك ساكنًا، بقيت على سجادة الصلاة.

لماذا ترجل ذاك الشاب من السيارة وأصر عليك أن تأخذ مكانه فيها، قالوا لك: «يا أبا خالد، نريد صحبتك معنا اليوم، فلا تبخل علينا بها».

وكيف تبخل عليهم بذلك، وهم رفقاء ابنك في المقاومة والنضال، وبعد ذلك الصاروخ الأوحد من طائرة «إف 16» أصبحوا هم أنفسهم رفقاءك في الجنة، بعدما اختلطت عظامك وأشلاؤك بأشلائهم، هكذا تكون نهاية رجلٌ طاهرٌ ورع، موتٌ كهذا يليق بك، يكفيك شرفًا أن تموت وأنت صائم عائد من صلاة الفجر في المسجد في يوم مبارك مثل يوم الاثنين.

أتراك يا والدي قصدت بكلمتك «لا تتأخري» أن أكون أول اللاحقين بك إلى العالم الآخر؟!

لا أظن أني سوف أتأخر.. لا أظن ذلك.

***

(١٩)

عندما ينادي الموت أحدهم

حان الآن موعد غفوتي أنا الأخرى، بدأ النوم يتسلل إليّ، أرى نفسي وقد استيقظت وعلى وجهي ابتسامة بشوشة ونظرة ساحرة، من أين لي بكل هذا الجمال والإشراق، زوجي ينتظرني بالقرب من المائدة في المطبخ، ورائحة القهوة تفوح عبيرًا يعطر سنوات عمري القادمة، أحمد يركض خلف ندى، ضحكاتهما تزيد الصباح صباحًا مورقًا ألقًا.

نور الشمس يغمرني بعد ليلٍ بهيمٍ طويل، ونسمات الربيع على أعتاب الولادة الشتوية تتغنج ملوّحة للشتاء الذي يحمل حقائبه مغادرًا، أوراق الأشجار تزداد أخضرارًا، وثوبي الأبيض بلون الياسمين يطيرُ على جانبيّ، يسابقني نحو البهجة، ويغازل خصلات شعري المتموجة، أرى بوضوح جناحيّ الأبيضين النابتين، يخفقان، يجدفان، يجددان هواء المكان.

أشعر بأني خفيفة، أكاد أطير في الهواء، قدماي لا تلامسان الأرض، روحي شفافة، وقلبي ينبض كمعزوفة ناي تُركت في مكان ما، وعروق جسدي مروجٌ خضراء تنتشي بالرياح القادمة من بعيد، تلك الرياح المعبقة برائحة الزمن الجميل.

ستائر المطبخ تتطاير في محاولات شبه ناجحة لمعانقة رائحة القهوة التي أعدها محمود.

أما أبي فقد كان واقفًا هناك أمام الباب، أنيقًا بهيًّا كعادته، تلمع عيناه ويميل برأسه كطفلٍ مشاكس طال انتظاره للعبته المفضلة، مد يده يحثني على الإسراع، ابتسمت ومشيت بهدوء في اتجاهه، كملكة توجت اليوم في قلوب محبيها.

سرقت نظرة عابرة إلى الخلف، لا يزال أحمد يركض وراء ندى وهي تحاول ضاحكة الهروب منه، أما محمود فما زال يتكئ على المنضدة بجوار فنجان قهوته، في صوته ضجيج ألف مدينة، وفي عينيه حيرة أطفال الشتات، أما عقله ففيه – كالعادة – صخب الحياة كلها.

أشار بيده وابتسامته تشع على وجهه الأبيض المتلألئ ولسان حاله يقول: «اذهبي يا ليلى، فهو ينتظرك منذ فترة طويلة».

أنا لا أحتاج إلى الموت لكي أذهب إلى الجنة، أنا في الجنة الآن!

***

(20)
شهادة محمود

أحبها.. إنه ليس سرًا، لقد كانت زوجتي وأم طفليَّ، كنا مثالًا للعلاقة الزوجية الناجحة.. دعني أخبرك أننا كنا مثار إعجاب وغبطة الآخرين، كانت لي نعم الرفيق والمعين، كانت وردة حياتي، وهبة الله لعمري.

حسنًا، دعك من كل هذا الكلام المنمق والمزوَّق، سوف أكون واضحًا وصريحاً معك حتى النهاية.. إنني أكذب، نعم أكذب، أعترف بأننا لم نكن يومًا زوجين متفاهمين أو حتى متجانسين، كانت أحاسيسنا ضعيفة مشوشة، ومشاعرنا باهتة بلا لون أو طعم أو حتى رائحة، لكن رغم ذلك غلفنا عواطفنا بهالة من الانسجام الخارجي، لنحفظ ماء غرورنا وكبريائنا، لكي لا نكون مضغة في أفواه الآخرين ولا موضع ثرثرتهم الصباحية، لنحافظ على صورة العائلة الصغيرة المتماسكة.

أفتقدها؟ نعم أفتقدها، لقد كانت جزءًا من يومياتي، جزءًا من كلي، أشعر وكأني فقدت كتفي، لا أعلم لماذا كتفي بالتحديد وليس أي عضو آخر من جسدي، فقط كتفي، لقد سقطت مني في هوة سحيقة، أشعر أنني أسير في هذه الحياة بشكل أعرج أهوج، وكأن كتفي التي فقدتها هي

من كانت تمنحني كل هذا التوازن.

كنا مختلفين في فهمنا الأشياء، مُدركين هذا الاختلاف، لكن غير مؤهلين – للأسف – لتضييق الفجوة فيما بيننا.

لا أشعر بالحزن الشديد على وفاتها – لأكن صادقًا معك – أنا حزين لكني لست حزينًا جدًا، ربما لأن الموقف كان صعبًا على نفسي كثيرًا، الأحاسيس المتضاربة التي شعرت بها، شعوري بالسعادة لنجاتي من ذلك القصف – أنا وابني أحمد – ثم عثورنا على ندى وهي على قيد الحياة مصابة ببعض الكدمات وانشغالي بها وبمعالجتها، كل تلك المشاعر لم تجعلني أتوقف للتفكير كثيرًا في وفاة ليلى، ربما أكون أنانيًا، لكنني متأكد بأني سوف أفتقدها كثيرًا عندما يعود المعزون لبيوتهم ويعود الجميع لاستئناف حياتهم من جديد، سوف أفتقد وجودها بجانبي، في بيتنا، في حجرة نومنا، في مشاويرنا، في كل شيء!

إن الإنسان الطبيعي ليحزن على موت أحد عصافيره أو حيوانه الأليف الذي يربيه في بيته، فما بالك بفقدان الزوجة التي يعاشرها ويعيش معها في نفس البيت، والتي تربي أطفاله وتعد له طعامه وتشاركه في كل شيء.

إن مهمتي الآن – بعد رحيل ليلى – أصبحت أكثر صعوبة من ذي

قبل، إن الهجرة للخارج كانت مجرد هاجس يعبر في رأسي بين الفينة والأخرى، لكن بعد ما حدث، تعدى كونه هاجسًا، لقد أصبح رغبة ملحة بالنسبة لي، لقد خسرتُ ليلى في حربٍ لا ناقة لنا فيها ولا جمل، ولن أسمح لتلك الحرب أو غيرها أن تخطف أحد أبنائي، لقد نجونا، وهذه رسالة من الله، أو ربما أوهم نفسي بأنها كذلك، المهم أنني سوف أدرس موضوع الهجرة بجدية وبحزم، المستقبل أمامي وأرض الله واسعة.

هروبًا؟! نعم هو كذلك، ما المشكلة في كوني أريد الهرب من الجحيم، لا أحد يرغب بالعيش في الجحيم، فلماذا يجب علي أنا أن أعيش فيه؟! لم يكن لي يد في مولدي هنا، على هذه الأرض، لم يشاورني أحد، ومن حقي الآن أن أبحث عن حياة أفضل لي ولأولادي، يكفيني ما قاسيته وعانيته هنا، هذا الوطن ليس لنا، إنه لهم، لأولئك القادة الذين يتربعون على عرش السلطة المزيفة والتي يتقاتلون عليها، يتقاتلون على الوهم، يتعاركون من أجل حكم هلامي لا حقيقة له على أرض الواقع، ونحن — الشعب — نحن فقط من يدفع ثمن أهوائهم وأوهامهم وأخطائهم أيضًا، هم وحدهم من يقررون متى يطلقون الصواريخ على إسرائيل، متى يهاجمونها، ومتى يفاوضونها، ومتى يهادنونها، أما الشعب فعليه تقبل قراراتهم الطائشة التي تخدم فقط مصالحهم الحزبية والفئوية، وكل من

يحاول أن يرفع رأسه ويذكرهم بالأمانة التي حملوها في أعناقهم، قصوا له رقبته.

لقد أغرقوا الشعب بالأزمات المفتعلة، جعلوا كل تفكيره ينحصر بتوفير لقمة العيش، بالبحث عن الطحين والبنزين وجرة الغاز، لم تعد قضية القدس وتحرير فلسطين والأسرى وعودة اللاجئين هي الهم الوطني الأكبر في حياتهم، كل تفكيرنا أصبح ينحصر في موعد نزول الراتب في البنك، جدول انقطاع الكهرباء، فتح معبر رفح، إدخال المساعدات الخارجية، الحصول على الكوبونات، وتوفر مواد البناء.

لقد أضاعوا القضية، أضاعوا الوطن وأضاعونا معه، فلا يأتي أحد الآن ويهاجمني لرغبتي في الهجرة عن هذا الوطن الذي لم يعد وطنًا، لم يعد لنا متسع فيه، لقد اقتسموه فيما بينهم، ونسوا أن يعطونا حصتنا ونصيبنا منه!

سوف أبحث عن وطن يحتويني، يحترمني، ويقدر عقلي وعملي، سوف أبحث عن وطن بديل وأهرب من الوطن الذي لا أعرف من أين تأتيني فيه الرصاصة القاتلة وعلى يد من!

لا أحد يملك منعي أو إجباري على الحياة هنا، أنا حر فيما أفعل، وليلى كذلك، لقد كانت حرة واختارت أن تعيش وتموت هنا، وقد

كان لها ما أرادت.

سوف أقلب هذه الصفحة من كتاب حياتي، وربما أمزقها، وأفتح صفحة أخرى جديدة.

***

(21)

شهادة أم خالد

إنها ابنتي وكفى.. كانت جميلة من دون ابتذال.. ضحكتها سر تألق صباحاتي.. كانت الوردة التي زرعها زوجي في حديقة جسدي ورحت أسقيها كل يوم من ماء روحي، وأراها تنمو وتكبر على مرأى من أيامي.

هي تلك الزهرة التي ذبلت قبل أوانها، والشمعة التي انطفأت قبل موعدها، هي الآية المعكوسة لابنة تودع أمها وتشيعها بنظراتها ودموعها، تراها استعجلت الرحيل لتلحق برجلها الأول الذي أوصاها بعدم التأخر؟!

إنه ينتظرها هناك حيث مكانه الطبيعي، فمثله يجب أن لا يكون هنا على هذه الأرض، وهي أيضًا لم يكن هذا هو مكانها، فمثلها لا يعيش في عالم خرب، تلك الطفلة في ثياب امرأة، تعذبت وقاست كثيرًا، عانت من فراق والدها وسجن أخيها، وحياتها الباهتة مع زوجها، وعدم قدرتها على كسب ود أطفالها.

كان الاكتئاب يلتهم روحها، شعورها بالعجز تجاه الأشخاص والأشياء، عجزها عن تقبل الحياة كما هي والتعايش مع الأوضاع الصعبة

التي نعيشها هنا جعلها أشبه بروح محبوسة داخل جسد.

كان زوجي أكثر مني قدرةً على بث روح الحياة في شغاف قلبها، ومنذ رحيله عجزتُ عن تقمص دوره، عجزتُ أن أحل محله، كنتُ بحاجة أنا أيضًا لمن يمسك بيدي ويساعدني على المُضي قدمًا، وخالد لم يساعدني – هو الآخر – على تجاوز كل هذا، وعندما تزوجَت محمود، عجز هو الآخر عن أداء ذلك الدور، عجز أن يأخذ بيدها إلى بر الأمان.

لقد كانت ليلى وخالد كل ما لدي بعد رحيل والدهما، وقد كانت ترعبني فكرة موت أحدهما قبلي، كنت خائفة أن تسكن الحسرة في قلبي على رحيلهما، لم أستطع للحظة واحدة تخيل ذلك، أما الآن وبعد رحيل ابنتي الوحيدة، فرحة عمري الأولى، لا يسعني إلا القول إنني قد استطعت بطريقة أو بأخرى تقبل الأمر، فالمسألة برمتها أصبحت ترتبط بالوقت، الوقت فقط، فالموت يحصد أرواحنا اليوم أو الغد.. وعلى أبعد تقدير بعد غد!

لم يعد يعنيني كثيرًا التفكير في الموت على أنه فراق الأحبة، على الأقل أنا أعرف الآن أين هي، لن يكون بوسعي بعد الآن القلق عليها في أثناء الحرب أو في الاجتياحات المتكررة، لن أخاف أن يصيبها مكروه، لن أقضي الليالي في التفكير في حالتها النفسية السيئة، لن تحرق دموعها

قلبي بعد اليوم، لقد توقفت عذاباتها للأبد، لقد توقف كل شيء.

أعتقد أنها ارتاحت الآن إذا كان في الموت راحة كما يقولون!

لقد رحلت ليلى لكنها تركت لي أجمل ذكرى حية تمشي على الأرض وهي أحمد وندى، رؤيتهما سوف تخفف عني الكثير، وتهون على نفسي فراق والدتهما.

أم سائد؟! ماذا عنها؟! لقد كانت جارتي وصديقتي، أعتقد أنها ماتت من جراء القصف ولم تكن واعية لما فعلته الفئران بها، أحمد الله أننا عثرنا على ليلى قبل أن تفعل بها الفئران ما فعلته بأم سائد.

مسكينة أم سائد، كانت نهايتها مؤلمة، لقد عاشت حياة صعبة، وماتت دون أن تدري بما حل بولدها الوحيد الذي أصابته قذيفة فأفقدته قدميه وإحدى يديه.

رحمة الله عليها وعلى ابنتي ليلى وعلى كل ضحايا تلك الحرب.

***

(22)

شهادة خالد

قال لي أبي ذات مرة: «لا تعري الحقيقة، يكفيها ما فيها من عُري»، والحقيقة أننا لسنا ملائكة وفي الوقت نفسه لسنا شياطين، نحن فقط بشر، نعم.. بشر لكن في ظروف استثنائية، نحن لسنا أفضل من أحد، ولا نختلف عن الآخرين، فينا الطيب وفينا الشرير، المناضل والعميل، الشجاع والجبان، الشريف والمتسلق... نحب ونكره، نخطئ ونصيب.

الفلسطيني هو إنسان لم يختر واقعه بل وضعته أقداره في مجابهة قوة لا طاقة له بها ورغم ذلك قاوم ولم يستسلم.. نحن لا ندعي البطولة بل أجبرنا عليها, ولو كان أي شعب آخر في مكاننا لفعل ما نفعل.

إن مقارعتنا الدامية والطويلة مع المحتل الغاصب أرضنا وكرامتنا جعلت من قلوبنا سكنًا للقسوة والجبروت ومرتعًا خصبًا للشدة والغلظة.

إن أعوادنا متصلبة قاسية غير قابلة للانحناء أو المراوغة أمام العواصف العاتية ولذلك نخسر الكثير، أما قلوبنا فهي مغلفة بالغضب معقودة بالنكد، للأسف لقد أتلفت الحروب المتكررة شغاف قلوبنا وزوايا عقولنا.

«أعدائي هم أعداؤك.. لا تفكر فيهم كبشر، هم كائنات مشوهة»، كنتُ دائمًا أسمع هذه العبارة من والدي وأتوقف أمامها كثيرًا، لا أستطيع أن أفكر في الإسرائيليين وكأنهم بشر مثلنا يحق لهم الحياة، لقد تربيت وكبرت على فكرة أنهم ليسوا مثلنا.. لو توقفت لحظة واحدة وفكرت فيهم كبشر ربما غفرت لهم ما فعلوه فينا منذ أكثر من ستين عامًا.

لكنهم لم يتركوا لنا الفرصة لفعل ذلك، أفعالهم وممارساتهم الوحشية اليومية ضد شعبنا، جعلتهم في نظرنا كائنات مشوهة، لن يتغيروا، ولن يكونوا يومًا ما بشرًا مثلنا، سوف يبقون هكذا إلى النهاية.

كيف أتقبل وجودهم في حياتي وهم من حرموني من وجودي على قطعة أرضي في «صفد»، وهم أيضًا من حرموني من وجود أحبائي في حياتي، لقد سرقوا سنين عمري، قطفوا زهرة شبابي خلف قضبانهم وأسقوني المر والعلقم في أقبيتهم.

لقد بذروا الكراهية والحقد في أرضنا، فكيف يمنون أنفسهم بحصد السلام والاستقرار، لا أستطيع تقبل فكرة التعايش معهم ودمائي ودماء أحبائي وأبناء شعبي تقطر من أيديهم وتلطخ ملابسهم، لا يمكنني ذلك، لا أستطيع.

ليلى؟! ماذا أقول عن ليلى! ماذا أقول عن شقيقة روحي، الغالية

والحبيبة، والأم الثالثة بالنسبة لي.

كانت ليلى امرأة جيدة لكنها لم تدركَ ذلك، كانت دائمًا تشعر أن هناك أمرًا ناقصًا فيما تفعله، أمرًا لم يتم عمله بالشكل المطلوب، حنانها لأطفالها كان ناقصًا من وجهة نظرها، اهتمامها بزوجها أيضًا كان ناقصًا، وفاؤها لذكرى والدها، وخوفها من أن تضبط متلبسة بضحكة من القلب، فما تلك الضحكة إلا خيانة للوالد الذي يجب أن يعتصر الألم والحزن قلبها طوال الوقت على فقدانه، وبذلك فقط تكون إنسانة وفية بالكامل، تعتقد أن حبها لفلسطين ناقص، فهي لم تحمل السلاح للدفاع عنها، تكافلها وتعاضدها مع المجتمع المحيط بها غير كافٍ، لا تنجز أي عمل بشكل تام، دائمًا تكون الخطوة النهائية ناقصة غير موجودة، قس ذلك على كل الأشياء من واجبات منزلية وعائلية، اهتمامها بأطفالها، عائلة زوجها، ضيوفها، وجيرانها.. ناقص، مشاعرها الإنسانية ناقصة، إدراكها الأمور ناقص، كل شيء من وجهة نظرها ناقص.

لم تكن كذلك قط، كان بداخلها إنسانة رقيقة رائعة، وقد تعبتُ من محاولاتي في إقناعها بذلك، كانت تعتقد أني أضحك عليها، أكذب مجاملةً لها، وهذا لم يكن صحيحًا، ليس على المرء أن يكون كاملًا في كل شيء، فالله لم يخلقنا كذلك، دائمًا هناك شيءٌ ما ينقصنا وهذه هي طبيعة

الحياة.

لكن التدفق الإنساني بداخلها هو الذي كان يؤرقها دائمًا ويشعرها بذلك النقص، إنسانيتها المفرطة كانت ميزة جميلة فيها، فهي مُحبة للآخرين، وعلى استعداد أن تساعدهم ولو كان في ذلك أذىً لها، كانت تنظر إلى الحياة بالنظرة الجماعية لا الفردية.

من المحزن أنها رحلت دون أن تدرك ذلك، دون أن تدرك كم كانت إنسانة رائعة ومختلفة عن الأخريات، للأسف لم تكن لتتوقف لحظة لتفكر في ذلك، لتنظر إلى نفسها في المرآة، وترى الجمال الذي يقبع بداخلها والذي أحاطته بهالة من الجمود ونكران الذات.

بالأمس كانت أمي تواسي سميرة في وفاة بناتها، واليوم سميرة تواسي أمي في استشهاد ابنتها، وهكذا يستمر الموت في حصد الأرواح ويستمر الناس في تداول الحزن فيما بينهم.

لم يترك لي الموت، بضرباته المتتالية، الفرصة لكي أحزن على الراحلين بالشكل اللائق، لم يعد في قلبي متسع لحزن جديد، وأنا الآن مطالب بالحزن على بنات سميرة وجارتي الودود أم سائد وعلى أختي الوحيدة ليلى، أنا الآن مطالب أن أكرر كلمات التعزية والمواساة لنفسي بعد أن كررتها لغيري في الأيام السابقة.

من المؤسف أن تشعر بأنك غير قادر على الحزن، غير قادر على التألم، مجبر على المضي قدمًا في الحياة من دون أي مشاعر، تسيطر عليك اللامبالاة، تقضي أيامك المتبقية في عمرك بروح خاوية ومشاعر متبلدة.

تفزعني قدرتي الغريبة على التكيف والتأقلم مع أسوأ الظروف، وكأني ماء يتشكل حسب الإناء الذي يوضع فيه!

عندما قُتِلَ والدي، لم يكن مستهدفًا لشخصه بل لمجرد كونه فلسطينيًا، إنها تهمة كل من وُلِدَ على هذه الأرض، وعقاب الفلسطيني أن يتأرجح مصيره بيد جندي إسرائيلي مراهق، ربما تجاوز سن الثامنة عشرة بقليل.

وأيضًا ليلى مثل أم سائد وبنات سميرة، ضحايا تلك الحرب، لم يكنَّ مستهدفات لشخوصهن، لكن قدرهن وضعهن في هذا المكان وفي هذا التوقيت.

لقد قضت ليلى ضحية لقصف بيت أم سائد، القصف الذي كان يهدف لاغتيال سائد نفسه، ربما اعتقدوا أنه موجود بالبيت في ذلك الوقت، لقد تم إطلاق صاروخ واحد موجَّه، لذلك لم يتأثر بيتنا بالقصف باستثناء المطبخ الذي كان ملاصقًا لبيت جارتنا الطيبة.

إن القدر جعل ليلى تدخل المطبخ لسببٍ ما وتلحق بها ندى في نفس وقت إطلاق الصاروخ الذي أدى إلى تدمير بيت أم سائد بالإضافة إلى

سقوط سقف مطبخنا فوق ليلى، وهو نفس القدر الـذي جعـل ليلـى تمـوت بينما ترك ندى من دون أن تتعرض لأي مكروه أو تصاب بأذى.

القدر وحده قرر من سوف يموت في ذلك اليـوم ومـن سـوف يُمـنح فرصة أخرى.. القدر نفسه الذي جعل الاجتياح البري للحي الذي نـسكنه يبدأ مع سقوط ذلك الصاروخ الذي ألقى بي من نافذة حجرتـي في الحديقـة والذي ألقى بمحمود وأحمد إلى الشارع.

حملنا الجيران وأنقذوا أرواحنا، لكنهم لم يتمكنوا من العودة مرة أخرى لإنقاذ ليلى وندى وأم سائد من تحت الأنقاض، لم تمهلهم الدبابات التي حاصرت محيط بيتنا وأطلقت المزيد من القذائف.

كل لحظة مرت علينا في انتظار ابتعاد الدبابات عن مدخل البيت، كانـت تنهـشنا في قلوبنـا، تحـرق أعـصابنا، كانـت تـذبحنا الظنـون والهواجس، كنا نقف في برزخ بين أمنياتنا بأنهن على قيد الحياة ويقيننا بأن لا أحد ينجو من القصف ويبقى تحت الأنقاض حيًا لأكثر من يومين.

لقد علمت من ندى أن ليلى لم تمـت مباشـرة مـن القـصف، وأنهـا تحدثت معها عدة مرات قبل أن تـصمت للأبـد، أعتقـد أن تلـك اللحظـات التي قضتها ليلى منـذ سـقوط الـصاروخ وحتـى وفاتهـا كانـت مـن أصـعب اللحظات في حياتـها، كيف قضت تلك اللحظات وفيمَ كانت تفكر يا تـرى؟

هل شعرت بالوحدة.. بالخوف؟!

تقول ندى إن والدتها كان موقنة أننا سوف نأتي وننقذهما، وأنها مسألة وقت لا أكثر، ربما لو لم يحدث الاجتياح البري، لكانت ليلى بيننا الآن، لكنه قدرها، انتهى أجلها، وعلينا تقبل الأمر.

في الصفحة الأولى من مذكرات أبي، كتب بخط رقعة جميل:

«من الذي أورث الروح أوجاعها؟».. وذيلها باسم مريد البرغوثي.

لقد صدق والدي وصدق مريد، إن الروح مثقلة بأوجاع كثيرة، وكأننا ورثنا تلك الأوجاع ممن سبقونا، كلما حاولنا التخفف من أحمالنا الثقيلة على قلوبنا، ازداد ثقلها واشتدت أكثر فأكثر، هي الحياة بكل تعقيداتها، كلما حاولنا فهمها ازدادت غموضًا وتنكيلًا بنا.

لقد حزم الأمل أمتعته ورحل بعيدًا عن أرضنا، تاركًا خلفه أرواحًا مشبعة بالأوجاع وقلوبًا مثقلة بهمومٍ لا قبل لها بها.

أتمنى أن أستيقظ ذات يوم على وجه آخر للعالم يكون أكثر إنسانية وأقل بشاعة مما هو عليه الآن.

***

إمتياز زعرب النحال

رواية

أوجاع الروح

اكتبي.. أفرغي دواخلك على ورقة بيضاء معطوبة بوجع الاشتياق..

اكتبي.. اسكبي آلامك وأحزانك الدفينة على رخام الحروف.. لعل حرف يعتزل مهنته الأزلية ويمتهن الطب ليريحك من عناء ألم يتسرب من حنايا الروح.

اكتبي.. يا يمامة الحزن.. يا عشقا اندثر بين وريقات تخفي الحنين بين نقطة / فاصلة هاربة من عتاب حمائم الغريبة.

اكتبي.. ودعي حلمك يمتشق سهام الكون لا يبوح ولا يخبئ، دعيه شفافا طاهرًا يروي حكايا انثى لا بداية لها ولا نهاية.

النشر لـمن يستحق 4

كلمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" بعد قيام ثورة يناير المجيدة.. ولفترة محدودة وعلى مراحل، علّ ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج إيجابية..

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح -مثل سابقيها- بإذن الله، من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

ولتبدأوا الاستمتاع بحروف هذا الكتاب.